الجزء السابع عشر

سـورة الأنبياء

هى مكية وآيها اثنتا عشرة ومائة .

أخرج البخارى عن ابن مسعود أنه قال : « بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادى » .

وعن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب فأكرم مثواه وكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءه الرجل فقال : إنى استقطعت رسول الله واديا ما فى ديار العرب واد أفضل منه ، وقد أردت أن أقطع إليك قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك ، فقال عامر : لاحاجة لى فى قطعتك ، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا ، يريد هذه السورة .

ومناسبتها لما قبلها .

أن السورة السالفة ختمت بأن الناس قد شغلتهم زهرة الدنيا التى جعلها الله لهم فتنة ، وأن الله نهى رسوله أن يتطلع إليها ، وأمره بالصلاة والصبر عليها ، وأن العاقبة للمتقين ـ وبدئت هذه السورة بمثل ما ختمت به السالفة ، فذكر فيها أن الناس غافلون عن الساعة والحساب ، وأنهم إذا سمعوا القرآن استمعوه وهم لاعبون ، وقلوبهم لاهية عنه .

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ؟ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) .

شرح المفردات

اقترب وقرب بمعنى ، والمراد من اقتراب الحساب اقتراب زمانه : وهو مجيء الساعة ، والناس : هم المكلفون ، معرضون : أى عن التأهب لهذا اليوم ، من ذكر : أى قرآن ، محدث : أى جديد إنزاله ، يلعبون : أى يسخرون ويستهزئون ، لاهية قلوبهم : أى غافلة قلوبهم عن ذكر الله ، النجوى : التناجى ، والمراد أنهم أخفوا تناجيهم ولم يتناجوا بمرأى من غيرهم ، أضغاث أحلام : أى تخاليط أحلام رآها فى النوم ، افتراه : اختلقه من تلقاء نفسه ، بل : كلمة تذكر للانتقال من غرض إلى آخر ولا تذكر فى القرآن إلا على هذا الوجه كما قال ابن مالك وسبقه إليه صاحب الوسيط ووافقه ابن الحاجب وهو الحق .

الإيضاح

(اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون) أى دنا حساب الناس على أعمالهم التى عملوها فى دنياهم ، وعلى النعم التى أنعمها عليهم ربهم فى أجسامهم وعقولهم ومطاعمهم ومشاربهم ، ماذا عملوا فيها ؟ هل أطاعوه فيها فانتهوا إلى أمره ونهيه ؟ أو عصوه فخالفوا أمره فيها ، وهم فى هذه الحياة فى غفلة عما يفعل الله بهم يوم القيامة ، ومن ثم تركوا الفكر والاستعداد لهذا اليوم والتأهب له ، جهلا منهم بما هم لاقوه حينئذ من عظيم البلاء وشديد الأهوال ؛ وآثر بيان اقتراب هذا اليوم مع أن الكلام مع المشركين المنكرين للبعث ، للإشارة إلى أن البعث لاريب فيه ، وأن الذى يرجى بيانه ذكر ما يستتبعه من الأحوال والأهوال كالحساب الموجب للاضطراب على وجه أكيد ونهج سديد .

وخلاصة ذلك — إنه قد دنا وقت الساعة وهم غافلون عن حسابهم ، ساهون لايتفكرون فى عاقبتهم ، مع أن قضية العقل تقضى بجزاء المحسن والمسىء ، وإذا هم تنبهوا من غفلتهم بما يتلى عليهم من الآيات والنذر أعرضوا عنه وسدوا أسماعهم عن سماعه .

ثم ذكر ما يدل على غفلتهم وإعراضهم بقوله :

(ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون. لاهية قلوبهم) أى ماينزل الله من قرآن ويذكرهم به ويعظهم إلا استمعوه وهم لاهون لاعبون مستهزئون.

والخلاصة — إنه ما جدد لهم الذكر وقتا فوقتا وكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون ، إلا زادهم ذلك سخرية واستهزاء .

وفى هذا ذم لأولئك الكفار وزجر لغيرهم عن مثله ، فالانتفاع بما يسمع لا يكون إلا بما يرجع إلى القلب من تدبر وتفكر ، وإلا حصل مجرد الاستماع الذى تشارك البهيمة فيه الإنسان .

و بعد أن ذكر ما يظهرونه حين الاستماع من اللهو واللعب ، ذكر مايخفونه بقوله:

(وأسروا النجوى الذين ظلموا) أى وأسرّ هؤلاء الذين اقتربت الساعة منهم وهم فى غفلتهم معرضون ـ التناجى بينهم وأخفوه عن سواهم .

ثم بين ماتناجوا به فقال:

(هل هذا إلا بشر مثلكم ؟) أى قالوا فى تناجيهم متعجبين من دعواه النبوة هل هذا الذى آتاكم بهذا الذكر إلا بشر مثلكم فى خَلْقه وأخلاقه ، يأكل كما تأكلون، و يشرب كما تشربون، و يموت كما تموتون، فكيف يختص دونكم بالرسالة ؟

(أفتأتون السحر وأنتم تبصرون) أى ماهذا الذى أتى به مما لاتقدرون عليه إلا سحر لاحقيقة له ، فكيف تعلمون ذلك ثم تذعنون له وتتبعونه وتجيبون دعوته .

وخلاصة ذلك — إنهم طعنوا فى نبوته بأمرين :

(١) إن الرسول لا يكون إلا ملكا .

(٢) إن الذى يظهر على يديه من قبيل السحر .

وإنما أسروا ذلك ، لأنه كالتشاور بينهم والتحاور لطلب الطريق الموصل إلى هدم دينه ، وقد جرت عادة المتشاورين فى خطب عظيم ألا يشركوا أعداءهم فى مشورتهم ، بل يجتهدون فى طىّ سرهم عنهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا كما جاء فى حكمهم : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » .

فأجابهم عليه السلام عما قالوا :

(قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم) أى قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم : إنكم و إن أخفيتم قولكم وطعنكم فىّ ، فإن ربكم عليم بذلك و إنه معاقبكم عليه ، وهو السميع لجميع المسموعات ، العليم بجميع المعلومات .

وفى هذا من الوعيد والتهديد ما لايخفى .

و إنما آثر كلمة (القول) التى تعم السر والجهر دون كلمة (السر) التى تقدمت

فى الكلام ـ للإيذان بأن علمه تعالى بالأمرين على وتيرة واحدة ، لاتفاوت فيه بالجلاء والخفاء كما فى علوم العباد .

وخلاصة ذلك — إنه يعلم هذا الضرب من الكلام وأعلى منه وأدنى منه ، وفى هذا مبالغة فى علمه تعالى بكل ما يمكن أن يسمع أو يعلم .

ثم بين سبحانه أنهم اقتسموا القول فى النبى صلى الله عليه وسلم وفيما يقوله فقال: (بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر) أى إنهم لم يقتصروا على قولهم السابق (هل هـذا إلا بشر مثلكم) وعلى قولهم فيما ظهر على يديه إنه سحر ـ بل قال بعضهم : أخلاط أحلام قد رآها فى النوم ، وقال آخرون : بل اختلقه من تلقاء نفسه ونسبه إلى الله ، وقال قوم : بل هو شاعر وما أتى به شعر يخيل إلى السامع معانى لاحقيقة لها .

وخلاصة ذلك — إنهم ما صدقوا بحكمة هذا القرآن ولا أقروا أنه من عند الله، ولا أنه وحى أوحاه الله إليه ، بل قالوا هذه المقالات .

وهذا الاضطراب والتردد فى القول دأب المحجوج المغلوب على أمره ، لايتردد إلا بين باطل وأبطل منه ، ويتذبذب بين فاسد وأفسد منه .

وقد ذكرت هذه المقالات على هذا الوضع ، إشارة إلى ترقيها فى الفساد ، فإن كونها سحرا أقرب من كونها أضغاث أحلام فقد يقال : « إن من البيان لسحرا » ، بخلاف تخاليط الكلام التى لاتنضبط ولا شبه لها بهذا النظم البديع ، وادعاء كونها مفتريات أبعد وأبعد ، لأنه عليه السلام قد شهر بالأمانة والصدق ـ إلى أنهم أعرف الناس بالفرق بين المنظوم والمنثور ، وبين ما يساق له الشعر ، وما سيق له هذا الكلام، إلى أنهم يعلمون من مخالطته مدى أربعين سنة أنه لايتسهل له الشعر وإن أراده .

ولما قدحوا فى القرآن طلبوا آية أخرى غيره فقالوا :

(فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) أى إن كان صادقا فى أن الله بعثه رسولا إلينا وأن الذى يتلوه وحى أوحاه الله إليه ـ فليأتنا بحجة تدل على ما يقول ويدعى كما جاء

به الرسل الأولون من قبله من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وناقة صالح وما أشبه ذلك من المعجزات التى لا يقدر عليها إلا الله ولا يأتى بها إلا الأنبياء والرسل .

وفى التعبير بقولهم (كما أرسل الأولون) بيان كونها آيات مسلمات تثبت الرسالة بمثلها ، ويترتب عليها المقصود ، وليس لأحد أن ينازع فيها .

ثم كذبهم سبحانه فيما تضمنته خاتمة مقالهم من الوعد بالإيمان حين إتيان الآية المقترحة ، وبين أن فى ترك إجابتهم عما طلبوا — إبقاء عليهم فإنهم لو أوتوها ولم يؤمنوا بها لاستئصلوا بالعذاب كما هى سنة الله فى الأمم السالفة إذا كذبت رسلها بعد إتيانهم بما اقترحوا ، ولكن قد سبقت كلمة الله أن مشركى هذه الأمة لا يعذبون بعذاب الاستئصال فقال :

(ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ؟) أى إن هؤلاء أشد عتوّا من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات ووعدوا أنهم يؤمنون حين مجيئها ، فلما جاءتهم نكثوا العهد وخالفوا ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، فلو أعطوا ما اقترحوا لكانوا أشد نكثا ، فينزل بهم عذاب الاستئصال ، وقد سبقت كلمة ربك أنه سيؤخر عذابهم إلى اليوم المعلوم .

قال قتادة : قال أهل مكة للنبى صلى الله عليه وسلم إذا كان ما تقوله حقا ويسرك أن نؤمن فحوّل لنا الصفا ذهبا ، فأتاه جبريل فقال : إن شئت كان الذى سألك قومك ولكنه إن كان ثم لم يؤمنوا لم ينظَروا ، وإن شئت استأنيت بقومك ، قال بل أستأنى بقومى فأنزل الله ما آمنت قبلهم الآية .

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠) .

شرح المفردات

أهل الذكر : هم أهل الكتاب ، الجسد : كالجسم إلا أنه لا يقال لغير الإنسان كما قال الخليل بن أحمد ، خالدين : أى باقين ، الوعد : هو نصرهم و إهلاك أعدائهم ، المسرفين : أى الكافرين ، ذكركم : أى عظتكم ، تعقلون : أى تتدبرون ما فى تضاعيفه من العبر والمواعظ .

المعنى الجملى

لما ذكر سبحانه فيما سلف إنكارهم لأن يكون الرسول بشرا بقولهم «هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ» أجاب عن هذه الشبهة بأن هذه سنة الله فى الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، فليس محمد ببدع من الرسل ، و إن كنتم فى ريب من ذلك فاسألوا أهل الكتاب من قبلكم ، ثم ذكر أن الرسل كسائر البشر فى سنن الطبيعة البشرية يأكلون الطعام ولا يخلدون فى الأرض ، بل يموتون كما يموت سائر الناس ، وقد صدقهم الله وعده ، فينجيهم ومن آمن بهم و يهلك المكذبين لهم ، وأعقب ذلك بأن فى القرآن عظة لهم لو كانوا يعقلون ما فى تضاعيفه من مواعظ وزواجر ووعد ووعيد .

الإيضاح

(وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم) أى وما أرسلنا قبلك أيها الرسول رسولا إلى أمة من الأمم التى خلت من قبلك إلا رجلا مثلهم نوحى إليه ما نريد من أمرنا ونهينا ، لا ملكا نوحى إليه بوساطة الناموس ما نوحى من الشرائع والأحكام والقصص والأخبار ، فما بالهم لا يفهمون أنك لست بدعا من الرسل ؟ .

وقد جاء بمعنى الآية قوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ

أَهْلِ الْقُرَى » وقوله : « قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ » وقوله حكاية عمن تقدم من الأمم : « أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ؟ » .

ثم أمرهم سبحانه أن يسألوا فى ذلك أهل الكتاب من اليهود والنصارى تبكيتا لهم و إزالة لما علق بأذهانهم من الاستبعاد بعد أن بين لهم وجه الحق فقال :

(فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون) أى فاسألوا أهل الكتاب ممن يؤمن بالتوراة والإنجيل ـ يخبروكم عن ذلك إن كنتم لاتعلمون الحق ولا يستبين لكم الصواب.

و بعد أن بين أنه صلى الله عليه وسلم على سنة من مضى من الرسل فى كونه رجلا ـ بين أنه على سنتهم فى سائر الأوصاف التى حكم بها على البشر فى معيشتهم وموتهم فقال :

(وما جعلناهم جسدا لايأكلون الطعام وما كانوا خالدين) أى وما جعلنا الرسل الذين أرسلناهم من قبلك إلى الأمم الماضية قبل أمتك ـ جسدا لايأكلون الطعام : أى لم نجعلهم ملائكة لايأكلون الطعام ، بل جعلناهم أجسادا مثلك يأكلون الطعام وتعرض لهم أطوار البشر جميعا من صحة ومرض وسرور و حزن ونوم و يقظة ، وما كانوا مخلدين لايموتون ولا يفنون ، ولكنهم غبروا حينا من الدهر وهم أحياء ثم طواهم الثرى وضمتهم القبور .

وخلاصة ذلك — إنا جعلنا الرسل أجساما تتغذى حين الحياة ، ثم يصير أمرها إلى الفناء بعد استيفاء آجالها ، ولم نجعلهم ملائكة لايتغذون ، وما كانوا مخلدين بأجسادهم ، بل يموتون كما مات الناس قبلهم و بعدهم ، و إنما امتازوا عن غيرهم من سائر الناس بما يأتيهم عن الله من الوحى والزلفى عنده .

(ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين) أى إنا أرسلنا رسلا من البشر وصدقناهم وعدنا فنصرناهم على المكذبين وأنجيناهم هم ومن آمن معهم وأهلكنا الذين أسرفوا على أنفسهم بتكذيبهم رسل ربهم .

ونحو الآية قوله : « فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ » .

و بعد أن حقق رسالته صلى الله عليه وسلم ببيان أنه كسائر الرسل الكرام ـ شرع يحقق فضل القرآن الكريم و يبين نفعه للناس بعد أن ذكر فى صدر السورة اعراض الناس عما يأتيهم من آياته واضطرابهم فى شأنه فقال :

(لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم) أى ولقد آتينا كم كتابا فيه عظتكم بما إشتمل عليه من مكارم الأخلاق وفاضل الآداب وسديد الشرائع والأحكام مما فيه سعادة البشر فى حياتهم الدنيوية والأخروية .

ثم حثهم على التدبر فى أمر هذا الكتاب فقال :

(أفلا تعقلون ؟) أى أفلا تتفكرون فيما فى تضاعيفه من فنون المواعظ وقوارع الزواجر ، فتحذروا الوقوع فيما يخالف أمره ونهيه ، ولا يخفى مافى هذا من الحث على التدبر ، لأن الخوف من لوازم العقل ، فمن لم يتدبر فكأنه لاعقل له .

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥) .

شرح المفردات

كم : لفظ يفيد تكثير وقوع ما بعدها ، القصم : هو الكسر بتفريق الأجزاء و إذهاب التئامها ، والإحساس : الإدراك بالحاسة : أى أدركوا بحاسة البصر عذابنا

الشديد ، والبأس : الشدة ، والركض : الفرار والهرب ؛ يقال ركض الرجل الفرس برجليه إذا كدّه بساقيه ثم كثر حتى قيل ركض الفرس إذا عدا ومنه « ارْكُضْ بِرِجْلِكَ » والإتراف : إبطار النعمة يقال أترف فلان: أى وسع عليه فى معاشه وقل فيه همه ، يا ويلنا : أى يا هلاكنا ، دعواهم : أى دعوتهم التى يرددونها ، حصيد : أى كالزرع المحصود بالمناجل ، خامدين : أى كالنار التى خمدت وانطفأت .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه سبحانه أهلك المسرفين فى كفرهم بالله والعاصين لأوامره ونواهيه - بين هنا طريق إهلاكهم وكثرة ما حدث من ذلك فى كثير من الأمم ، ثم بين أنه أنشأ بعد الهالكين قوما آخرين ، وأنهم حينما أحسوا بأس الله فروا هاربين فقيل لهم على ضرب من التهكم والسخرية فلترجعوا إلى ما كنتم فيه من الترف والنعيم وإلى تلك المساكن المشيدة والفرش المنجدة ، فلعلكم تسألون عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومنازلكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة ، ثم بعد أن يئسوا من الخلاص وأيقنوا بالعذاب قالوا هلاكا لنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا ، مستوجبين العذاب بما قدمنا ، وما زالوا يكررون هذه الكلمة ويرددونها وجعلوها هجّيراهم حتى صاروا كالنبات المحصود والنار الخامدة .

الإيضاح

(وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين) أى وكثير من أهل القرى أهلكناهم بكفرهم بالله وتكذيبهم رسله ، ثم أنشأنا بعد إهلاكهم أمما أخرى سواهم .

ونحو الآية قوله « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ » وقوله « فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا » .

ثم بين حالهم حين حلول البأس بهم فقال :

(فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون) أى فلما أيقنوا أن العذاب واقع بهم لامحالة كما أوعدهم أنبياؤهم ـ إذا هم يهربون سراعا عجلين يعْدُون منهزمين .

والخلاصة — إنهم لما علموا شدة بأسنا وبطشنا علم حس ومشاهدة ركضوا فى ديارهم هاربين من قراهم بعد أن كانوا قد تجبروا على رسلهم وقالوا لهم « لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا » .

ثم ذكر أنهم فى ذلك الحين جديرون أن يقال لهم .

(لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون) أى يقال لهم على طريق الاستهزاء والتهكم : لا تركضوا هاربين من نزول العذاب ، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمساكن الطيبة والفُرُش المنجّدة الوثيرة ، لعلكم تُقْصدون للسؤال عما يجرى عليكم وينزل بأموالكم ومساكنكم ، فتجيبوا السائلين عما تشاهدون وتعلمون .

ثم ذكر ما أجابوا به القائلين لهم لا تركضوا وارجعوا فقال :

(قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين) أى قالوا حين يئسوا من الخلاص إذ نزل بهم بأس الله بظلمهم أنفسهم : هلاكا لنا لكفرنا بربنا ـ وهذا منهم اعتراف بالكفر المستتبع للعذاب ، وندم عليه حين لاينفع الندم :

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مرتع مبتغيه وخيم

(فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين) أى فما زالوا يرددون هذه المقالة ويجعلونها هِجّيراهم حتى حصدوا حصدا ، وخمدت حركاتهم ، وهدأت أصواتهم ، ولم ينبسوا ببنت شفة .

وخلاصة هذا — إنهم صاروا يكررون الاعتراف بظلم أنفسهم ولكن لم ينفعهم ذلك كما قال : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا » حتى لم يبق لهم حس ولا حركة ، وأبيدوا كما يباد الحصيد ، وخمدوا كما تخمد النار .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) .

شرح المفردات

اللعب : الفعل لايقصد به مقصد صحيح ، واللهو : الفعل يعمل ترويحا عن النفس ، ومن ثم تسمى المرأة لهوا وكذا الولد لأنه يُستروَحُ بكل منهما ، ويقال لامرأة الرجل وولده ريحانتاه ، من لدنا : أى من عندنا ، القذف : الرمى البعيد ، وأصل الدمغ : كسر الشيء الرخو ؛ ويراد به هنا القهر والإهلاك ، زاهق : أى زائل ذاهب ، الويل : الهلاك ، مَنْ عنده هم الملائكة ، لا يستكبرون أى لا يتعظمون ، يستحسرون : أى يكلون ويتعبون ، يقال حَسِر البعير إذا أعيا وكلّ ، ومثله استحسر وتحسر ، لايفترُون : أى لايضعفون ولايتراخَون .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مطاعنهم فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بتلك المقالات التى سلف ذكرها ـ قفّى على ذلك بذكر فساد تلك المطاعن وبيان أن من أنكر نبوته فقد جعل تلك المعجزات التى ظهرت على يديه من باب العبث واللعب . تنزه ربنا عن ذلك ، فإنه ماخلق السماء والأرض وما بينهما إلا لعبادته ومعرفته ومجازاة من قام بهما بالثواب والنعيم ، ومن لم يقم بذلك بالعقاب الأليم ، ولن يتم علم هذا إلا بإنزال الكتب وإرسال الرسل صلوات الله عليهم ، فمنكر الرسالة جاعل خلق السماء والأرض لهوا ولعبا، تعالى خالقهما علوًّا كبيرا .

ثم أردف هذا بالرد على من ادعى أن المسيح ابن الله وعزير ابن الله ، بأنه لو اتخذ ولدا لاتخذه من الملائكة ، وعقب هذا بأن الغلبة للحق دائما مهما طال أمد الباطل ، وأن جميع من فى السموات والأرض كلهم عبيده لايستكبرون عن عبادته ولا يملون .

الإيضاح

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) أى ماخلقنا هـذا السقف المرفوع ، وهذا المهاد الموضوع ، وما بينهما من أصناف المخلوقات البديعة ـ للهو واللعب ، بل خلقناها لفوائد دينية ، وحكم ربانية ، كأن تكون دليلا على معرفة الخالق لها ، ووسيلة للعظة والاعتبار ـ إلى ما فيها من منافع أخرى لا حصر لها .

وخلاصة ذلك — إن إيجاد العالم كله ولا سيما النوع الإنسانى واستخلافه فى الأرض ـ مبنى على بديع الحكم ، مستتبع لغايات جليلة لاتخفى على ذوى الألباب ، وقد علم بعضها من أنعموا النظر فى الكون وعجائبه ، وأوتوا حظا من صادق المعرفة ، فعرفوا بعض أسراره ، وانتفعوا ببعض ماأودع فى باطن الأرض وما على ظاهر سطحها ، مما كان سببا فى رقىّ الانسان ، ولا يزال العلم يولد لنا كل يوم عجيبا و يظهر لنا من كنوزها غريبا « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً » .

ونحو الآية قوله تعالى « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً . ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ » .

ثم أكد نفى اللعب بقوله :

(لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين) أى لو أردنا أن نتخذ لهوا كما يتخذ العباد لاتخذناه من عندنا من العوالم المجردة من المادة كالملائكة ، لكنا لانتنزل لملابسة ماهو من شأنكم المادى كالزوج والولد ، إذ لايجمل بنا ، لأنه

خارج عن نظام حكمتنا ، وقوانين نظامنا ، ورفعة قدرنا ، فنحن لا نلهو بالصور الجسمية ، ولا بالنفوس الروحية .

وخلاصة هذا — إنا خلقناكم لحكمة ، وصورناكم لغاية ، وجعلنا لكم السمع والأبصار لمنافع قدرناها لكم ، لا للهونا ولعبنا ، ومن ثم لا نتركم سدى ، بل نحاسبكم ونؤاخذكم ، والجدُّ مطلبنا ، واللهو واللعب من شأن العبيد المخلوقين ، لا من شأن رب العالمين .

ونحو الآية قوله « لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » .

(بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) أى إن من شأننا أن نرمى الحق الذى من جملته الجدّ على الباطل الذى منه اللعب فيكسر دماغه بحيث يشق غشاءه فيؤدى ذلك إلى زهوق روحه ، فيهلك — وقد شبه الباطل بإنسان كسر دماغه فهلك — .

وإذا كان هذا شأننا فكيف نتركم بلا إنذار كأننا خلقناكم لنلهو بكم .

(ولكم الويل مما تصفون) أى ولكم العذاب الشديد من وصفكم ربكم بغير صفته ، وقيلكم إنه اتخذ ولدا وزوجة وافترائكم ذلك عليه .

ولما حكى كلام الطاعنين فى النبوات وأجاب عنها ، وبين أن غرضهم من تلك المطاعن إنما هو التمرد والعناد — بين فى هذه الآية أنه غنى عن طاعتهم ، لأنه هو المالك لجميع المخلوقات ، والملائكة على جلالة قدرهم مطيعون له خائفون منه ، فأجدر بالبشر على ضعفهم أن يطيعوه ، وما أخلقهم أن يعبدوه ، فقال :

(وله من فى السموات والأرض) أى وله تعالى جميع المخلوقات خلقا وملكا وتدبيرا وتصرفا وإحياء وإماتة وتعذيبا وإثابة دون أن يكون لأحد فى ذلك سلطان لا استقلالا ولا استتباعا .

(ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون) أى والملائكة الذين شرفت منزلتهم عند ربهم لا يستعظمون عن عبادته ولا يكلّون ولا يتعبون .

وتخصيص الملائكة بالذكر للدلالة على رفعة شأنهم ، كما خصص جبريل من بين الملائكة فى قوله « تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ » .

ثم بين سبحانه كيف يعبدون ربهم فقال :

(يسبحون الليل والنهار لا يفترون) فهم دائبون فى العمل ليلا ونهارا ، مطيعون قصدا وعملا ، قادرون عليه كما قال فى الآية الأخرى « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » .

وخلاصة ذلك — المبالغة فى تنزيه الله وتسبيحه ، وهذا لا يمنع من تخلل فترات لا يفعلون فيها ذلك ، كما يقال : فلان لا يفتر عن ثنائك ، وشكر آلائك .

أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ(٢٢)لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) .

شرح المفردات

ينشرون، من أنشره : أى أحياه ، لفسدتا : أى لخرجنا عن نظامهما وخربتا ، فسبحان الله : أى تنزيها له عما وصفوه به ، هذا ذكر من معى : أى هذا الوحى المتضمن للتوحيد عظة أمتى ، وذكر من قبلى : أى وموعظتهم وإرشادهم ، لايسبقونه بالقول : أى لايتكلمون حتى يأمرهم ، مكرمون : أى مقربون عنده ، من خشيته : أى بسبب خوف عذابه ، مشفقون : أى حذرون .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فى سابق الآيات أن كثيرا من الأمم المكذبة لرسلها قد أبيدت وأنشئ بعدها قوم آخرون ، وأنهم حين أحسوا بالبأس ارعووا وندموا حيث لاينفع الندم ؛ ثم أردف ذلك بذكر أن من فى السموات والأرض عبيده ، وأن الملائكة لايستكبرون عن عبادته ، ولا يكلّون ولا يملون منها ـ ذكر هنا أنه كان يجب عليهم أن يبادروا إلى التوحيد ، لكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل فعلوا ضده فكانوا جديرين بالتوبيخ والتعنيف ، ثم أقام البرهان على وحدانيته وأنه لو كان فى السموات والأرض إلهان لهلك من فيهما ، تنزه ربنا عما يقول هؤلاء المشركون ، وقد كذب من اتخذ آلهة لادليل عليها ، وأن جميع الأديان جاءت باخلاص التوحيد ، كما كذب من جعل لله ولدا فقال : الملائكة بنات الله ، والملائكة خلق مطيعون لربهم لايفعلون إلا ما يؤمرون به ولايشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خوفه حذرون ، ومن يقل منهم إنه إله فلا جزاء له إلا جهنم ، وهى جزاء كل ظالم .

الإيضاح

(أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون) أى بل اتخذوا آلهة من الأرض هم مع حقارتهم وجماديتهم ينشرون الموتى .

وإنهم ولا شك بمعزل عن ذلك — والمشركون وإن لم يقولوا ذلك صريحا ، فما ادعوه لها من الألوهية يستدعى ثبوت إحياء الموتى لها ، لأنه من خصائصها .

ووصف الآلهة بكونها من الأرض ـ للإشارة إلى أنها من الأصنام التى تعبد فيها ، وللإيماء إلى ضعة شأنها ، وحقارة أمرها .

ثم أقام بعد هذا ـ الدليل العقلى على التوحيد ونفى أن يكون هناك إله غير الله فقال :

(لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) أى لو كان فى السموات والأرض غير الله لخربتا وهلك من فيهما ـ ذاك أنه لو كان فيهما إلهان فإما أن يختلفا أو يتفقا فى التصرف فى الكون ، والأول ظاهر البطلان ، لأنه إما أن ينفذ مرادهما معا فيريد أحدهما الإيجاد والثانى لا يريده فيثبت الوجود والعدم لشىء اختلفا فيه ، وإما أن ينفذ مراد أحدهما دون الثانى ، فيكون هذا مغلول اليد عاجزا ، والإله لا يكون كذلك ، والثانى باطل أيضا ، لأنهما إذا أوجداه معا وجب توارد الخلق من خالقين على مخلوق واحد .

ولما أثبت بالدليل أن المدبر للسموات والأرض لا يكون إلا واحدا ، وأن ذلك الواحد لا يكون إلا الله قال :

(فسبحان الله رب العرش عما يصفون) أى فتنزيها لله رب العرش المحيط بهذا الكون ومركز تدبير العالم عما يقول هؤلاء المشركون من أن له ولدا أو شريكا .

ثم أكد هذا التنزيه بقوله :

(لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) أى هو الحاكم الذى لا معقب لحكمه ، ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله ، وعلمه وحكمته ، وعدله ولطفه ، وهو سائل خلقه عما يعملون كما قال : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وقال : « وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ » .

ثم أعاد الإنكار مرة أخرى استفظاعا لشأنهم ، واستعظاما لكفرهم ، وإظهارا لجهلهم فقال :

(أم اتخذوا من دونه آلهة) أى أبعد هذه الأدلة التى ظهرت تقولون إن لله شركاء ؟ .

ثم أمرهم بإقامة الدليل على صحة ما يدّعون فقال :

(قل هاتوا برهانكم) أى بعد أن ثبت أنه لا إله غيره فهاتوا برهانكم على صحة اتخاذ الآلهة من الأصنام والأوثان ، ولا سبيل إلى ذلك ، لا بالدليل العقلى لأنه مر بطلانه ، ولا بالدليل النقلى لأن الكتب السماوية جميعا متفقة على هذا ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(هذا ذكر من معى وذكر من قبلى) أى هذا هو الكتاب المنزل على من معى ، وهذه هى الكتب المنزلة على من تقدمنى من الأنبياء كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى ، انظروا فيها هل تجدون إلا الأمر بالتوحيد والنهى عن الإشراك .

قال الزجاج : قيل لهم : هاتوا برهانكم بأن رسولا من الرسل أنبأ أمته بأن لهم إلها غير الله ، فهل فى ذكر من معى وذكر من قبلى إلا توحيد الله ؟

وفى هذا تبكيت لهم متضمن إثبات نقيض مدعاهم ، وإذاً فليس لهم إلا العجز مركبا .

ولما كانوا لا يجدون شبهة لهم فضلا عن حجة ، ذمهم على جهلهم بمواضع الحق فقال :

(بل أكثرهم لا يعلمون الحق) أى بل أكثر هؤلاء لا يميزون بين الحق والباطل ، فلا تؤثر فيهم المحاجة و إقامة البرهان والاقتناع به .

ثم ذكر أن هذا كان سببا فى إعراضهم وتجافيهم عن سماع الحق فقال :

(فهم معرضون) أى فهم لأجل هذا الجهل المستولى على أكثرهم أعرضوا عن

قبول الحق وعن النظر الموصل إليه ، فلا يتأملون حجة ، ولا يتدبرون برهانا ، ولا يتفكرون فى دليل .

ثم أكد ما تقدم من أدلة التوحيد فقال :

(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) أى وما أرسلنا رسولا إلى أمة من الأمم إلا أوحينا إليه أنه لامعبود فى السموات والأرض إلا أنا فأخلصوا لى العبادة وأفردوا لى الألوهة .

وخلاصة ذلك — إن الرسل جميعا أرسلوا بالإخلاص والتوحيد لايقبل منهم سواه.

ونحو الآية قوله : « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ، أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ؟ » وقوله : « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » .

و بعد أن بيَّن سبحانه بالدلائل الباهرة أنه منزه عن الشريك والندّ — أردف ذلك ببراءته عن اتخاذ الولد فقال :

(وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) أى وقال فريق من هؤلاء المشركين وهم حى من خزاعة وجهينة و بنى سلمة — الملائكة بنات الله ، فرد الله تعالى عليهم بقوله : (سبحانه) أى تنزيها له عن ذلك ، لأن الولد لابد أن يكون شبيها بالوالد ، فلو كان له ولد لأشبهه ، ولا مجانسة بين النعمة والمنعم والخالق والمخلوق .

ثم أكد إبطال ما سلف بقوله :

(بل عباد مكرمون) أى ليس الملائكة كما قالوا ، بل هم عباد مخلوقون له تعالى ، فهم ملكه لكنهم مقربون عنده فى منازل عالية ، ومقامات سامية .

ثم بين سبحانه كمال طاعتهم وانقيادهم لأمره وتأدبهم معه تعالى فقال :

(لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) أى لايتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم، ولا يخالفونه فيما أمرهم به ، بل يبادرون إلى فعله .

وخلاصـــة ذلك — إنهم فى نهاية المراقبة لربهم ، يجمعون بين الطاعة فى القول والفعل.

ثم علل هذه الطاعة بعلمهم بأن ربهم محيط بهم لاتخفى عليه خافية من أمرهم فقال:

(يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى يعلم ما عملوا وما هم عاملون ، لاتخفى عليه خافية مما قدموا وأخروا ، فلا يزالون يراقبونه فى جميع شئونهم .

(ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) أن يشفع له الشافعون ، أى إلا لمن رضى عنه ، فلا تطمعوا فى شفاعتهم لكم بغير رضاه تعالى .

قال ابن عباس : هم أهل شهادة أن لا إله إلا الله ، وقد ثبت فى الصحيح أن الملائكة يشفعون فى الدار الآخرة ، قال قتادة أى لأهل التوحيد .

(وهم من خشيته مشفقون) أى وهم من خوف الله والإشفاق من عقابه حذرون أن يعصوه و يخالفوا أمره ونهيه .

(ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم) أى ومن يدعى منهم أنه إله مع الله فجزاؤه جهنم على ما ادعى كسائر المجرمين ، ولا يغنى عنه ماسبق من أوصافه ، ومرضىّ أفعاله .

قال قتادة والضحاك وغيرهما : عنى بهذه الآية إبليس حيث ادعى الشركة ودعا إلى عبادة نفسه وكان من الملائكة ، ولم يقل أحد من الملائكة (إنى إله) غيره .

(كذلك نجزى الظالمين) أى وهكذا نجزى كل من ظلم نفسه ، فكفر بالله وعبد غيره .

وخلاصة ما تقدم — إنه تعالى وصف الملائكة بخمس صفات تدل على العبودية وتنافى الولادة .

(١) المبالغة فى الطاعة ، فإنهم لايقولون قولا ولا يفعلون فعلا إلا بإذنه .

(٢) إنه سبحانه يعلم أسرارهم وهم لايعلمون أسراره ، فهو المستحق للعبادة لاهم كما قال عيسى عليه السلام : « تَعْلَمُ مَافِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَافِي نَفْسِكَ » .

(٣) إنهم لايشفعون إلا لمن ارتضى الشفاعة له ، ومن يكون إلها أو ولدا للإله لايكون كذلك .

(٤) إنهم فى نهاية الإشفاق والوجل من الله .

(٥) إن حالهم كحال سائر المكلفين فى الوعد والوعيد ، فكيف يكونون آلهة.

أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ؟ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِى الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)

شرح المفردات

الرتق : الضم والالتحام خلقة كان أو صنعة ، والفتق : الفصل بين الشيئين الملتصقين ، الرواسى : الثوابت واحدها راسية ، وتميد : تتحرك وتضطرب ، والفجاج واحدها فج ، وهوشقة يكتنفها جبلان، والسبل واحدها سبيل : وهو الطريق الواسع والفلك : كل شىء دائر ، وجمعه أفلاك .

المعنى الجملى

بعد أن حكى مقالات أولئك المشركين الذين كانوا يعبدون آلهة من دون الله ، ومقالات أولئك الذين قالوا اتخذ الله ولدا من الملائكة وطالبهم بالدليل على صدق مايدّعون ، و بين لهم أنه لاسبيل إلى إثبات ذلك لامن العقل ولا من النقل ، إذ كل الرسل السابقين كان أسّ دعوتهم أن لا إله إلا أنا فاعبدون .

قفى على ذلك بتوبيخهم على عدم تدبرهم الآيات المنصوبة فى الكون الدالة على التوحيد ، ولفت أنظارهم إلى أنه لاينبغى عبادة الأصنام والأوثان ، فإن الإله القادر على مثل هذه المخلوقات لايعبد سواه من حجر أو شجر لايضر ولا ينفع .

الإيضاح

اعلم أنه سبحانه ذكر أدلة ستة تثبت وجود الخالق الواحد القادر ، لو تدبرها المنصفون ، وعقلها الجاحدون لم يجدوا مجالا للإنكار ولا سبيلا إلى الجحد :

(١) (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) أى ألم يعلم الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا مرتوقتين : أى ملتحمتين متصلتين ففصلناهما وأزلنا اتحادهما .

وهكذا يقول علماء الفلك حديثا إذ يثبتون أن الشمس كانت كرة نارية دائرة حول نفسها ملايين السنين ، وفى أثناء سيرها السريع انفصلت منها أرضنا والأرضون الأخرى وهى السيارات من خط الاستواء الشمسى ، فتباعدت عنها ، وما زالت أرضنا دائرة حول نفسها وحول الشمس على نظام خاص بحكم الجاذبية .

قال الأستاذ عبد الحميد سماحة وكيل المرصد الملكى المصرى : إن النظرية الحديثة فى كيفية مولد الأرض وأخواتها الكواكب السيارة من الشمس ، هى افتراض اقتراب نجم كبير من الشمس فيما مضى من الزمن اقترابا كافيا ، فجذب من سطحها كتلة لم تلبث أن انفصلت من الشمس على شكل سهم مدبب الطرفين سميك فى الوسط ، ثم تكثفت هذه الكتلة فى الفضاء البارد إلى كتل منفصلة ، وبقيت هذه الكتل التى تمثل الأرض وأخواتها الكواكب السيارة تدور بفعل الجاذبية للشمس فى مداراتها حولها بلا انقطاع ، وانطفأ نورها لأن كتلها كانت أصغر من أن تحتفظ بصفتها الأصلية قبل الانفصال وهو إشعاع الضوء .

فالكواكب السيارة ومنها الأرض لانراها بضوء يتشعع منها ، بل بضوء

الشمس منعكسا على سطوحها كما نرى القمر وكما نرى وجوهنا بضوء الشمس أو المصباح منعكسا عليها .

والكواكب السيارة تسعة وهى بترتيب قربها من الشمس : عُطارد . الزُّهرة . الأرض . المرّيخ . المُشْتَرى . زُحل . أورانوس . نبتون . بلوتوه .

ويدخل ضمن هذه الأسرة مجموعة كبيرة العدد من أجسام صغيرة تقع بين مدارى المريخ والمشترى وتدور حول الشمس كسرب من الطير ، ومن بينها المذنّبات أيضا والشهب التى نرى الكثير منها كل ليلة يهوى نحو الأرض ويحترق باحتكاكه بالغلاف الجوى الذى حولها .

أما بقية الأجرام السماوية التى نراها ليلا تزين سطح القبة السماوية فهى النجوم . والنجوم شموس موادها المركبة منها هى المواد المركبة منها شمسنا ، فسبحان الخلاق العظيم اهـ .

وبعد أزمنة طويلة لا يعلم مداها بردت القشرة الأرضية وصارت صالحة لإنبات بعض أنواع النبات ، ثم لسكنى الحيوان ثم لسكنى الإنسان .

ولا شك أن هذه النظرية التى لم يكن يعرفها العرب ولا الأمم المعاشرة لهم ، ولم تعرف إلا منذ القرن السابع عشر الميلادى ومحصت بعض التمحيص فى عصرنا الحاضر — تدل أكبر دلالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن القرآن وحى أرسله إليه ربه هداية للبشر ورحمة للعالمين .

وخلاصة ذلك — إن العقل البشرى مستعد لدرس عجائب هذا الكون ، ومعرفة سير هذه الكواكب ودورانها بنظام الجاذبية حول الشمس على سنن لا يتغير ولا يتبدل ، وقد دل البحث على أنها كلها كانت مجموعة واحدة انفصل بعضها من بعض بأسباب خاصة قدرها العليم الخبير .

وقد أرشد إلى بيان هذا خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ، ولم يكن قومه يفكرون فيه ولا الأمم المعاصرة لهم ، مما يدل على أن ذلك وحى أوحى إليه من لدن عليم خبير .

وقد كان هذا وحده كافيا فى الإسراع إلى تصديقه والإيمان برسالته لولا الجحد والإنكار وعمى القلوب « إِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » .

(٢) (وجعلنا من الماء كل شىء حى) أى وخلقنا من الماء كل حيوان كما قال فى آية أخرى « وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ » وكذا يحيا به كل نبات ونمو . وقال قتادة : خلقنا كل نام من الماء ، فيدخل الحيوان والنبات .

ويرى بعض علماء العصر الحاضر أن كل حيوان خلق أولا فى البحر ، فأصل جميع الطيور والزواحف وحيوان البر — من البحر .

ثم تطبعت بطباع حيوان البر على مدى الأيام وتنوعت أصنافها ، ولهم على ذلك كثير من الأدلة .

(أفلا يؤمنون) بأن يتدبروا هذه الأدلة فيعلموا بها الخالق الذى لايشبه غيره ، ويتركوا طريق الشرك .

(٣) (وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم) أى وجعلنا فيها جبالا ثوابت لئلا تميد وتضطرب بهم .

وقد أثبت العلم حديثا أن الأرض كانت نارا ملتهبة ثم بردت قشرتها وصارت صوانية صلبة وقدروا زمن ذلك بنحو ثلثمائة مليون سنة .

ومما يدل على صدق هذه النظرية ماتراه من حمم النيران التى تخرجها البراكين فى جهات كثيرة من الأرض كما حدث فى سنة ١٩٠٩ لبركان ويزوف بإيطاليا ، وقد طغى على مدينة مسّينا وابتلعها فى باطنه ولم يبق منها شيئا .

فهذه البراكين أشبه بأفواه تتنفس بها الأرض لتخرج من باطنها نيرانا ومواد ذائبة ، مما يرشد إلى أن الأرض كلها فى أحقاب طويلة كانت كذلك .

ولولا هذه القشرة الصلبة لتفجرت ينابيع النيران من سائر جهاتها كما كانت بعد ما انفصلت من الشمس كثيرة الثوران والفوران .

وهذه القشرة الصوانية البعيدة الغور المغلفة للكرة النارية هى التى نبتت منها الجبال التى نراها فوق أرضنا ، وهى التى جعلت لحفظ الأرض من أن تميد ، لأن الطبقة الصوانية هى الحافظة لكرة النار التى تحتها ، وما هى إلا كأسنان لها طالت وامتدت فوق طبقات الأرض ، فلو زالت هذه الجبال لبقى ماتحتها مفتوحا ، وإذ ذاك ربما تثور البراكين فى جهات كثيرة من الأرض وتضطرب اضطرابا شديدا وتزلزل زلزالا كثيرا .

وخلاصة ذلك — إنه لو لم تكن هذه الجبال التى هى قطعة من قشرة الأرض مرتفعة لما وجد ما يحفظ النيران المشتعلة فى باطن الأرض من الظهور على سطحها بالبراكين والزلازل ، وإذ ذاك ربما تضطرب الأرض اضطرابا شديدا وتخرج نيرانها الملتهبة من باطنها وتطغى على سطحها وتهلك الحرث والنسل .

وقد قدر العلماء حديثا نسبة الجبال إلى الأرض فقالوا : لو كان قطر الكرة الأرضية مترا لم تزد الجبال على ملليمتر ونصف فحسب .

وهذه هى المعجزة الثالثة فى الآية التى ترشد إلى أن القرآن وحى يوحى ، فما محمد ولا قومه ولا الأمم المعاصرون لهم يعلمون شيئا من هذه الآيات الكونية التى أيد صحتها تقدم العلوم وفهم ظاهر الأرض و باطنها .

وفى هذا مصداق لما أثر عن على كرم الله وجهه «القرآن جديد لاتبلى جدته» .

(٤) (وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون) أى وجعلنا فى الأرض طرقا بين جبالها يسلكها الناس من قطر إلى قطر ومن إقليم إلى آخر ليهتدوا بذلك إلى مصالحهم ومهامّ أمورهم المعيشية .

(٥) (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) أى إنه تعالى نظم السماء وجعلها كالسقف المحفوظ من الاختلال وعدم النظام ، فقد حفظت الشموس والكواكب فى مداراتها بحيث لا يختلط بعضها ببعض ولا يختبط بعضها فى بعض ، بل جعلت فى أماكنها الخاصة بها بقوة الجاذبية .

فالشمس والقمر والكواكب الأخرى متجاذبات حافظات لمداراتها لا تخرج عنها ، و إلا اختل نظام هذا العالم ، و بهذا الحفظ ونظام الدوران كان الليل والنهار الحادثين من جرى الأرض حول الشمس .

ونحو الآية قوله : « وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ » .

(وهم عن آياتها معرضون) أى والمشركون معرضون عن التفكر فى تلك الآيات الدالة على وحدانيتنا وعظيم قدرتنا و إحاطة علمنا .

(٦) (وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر ، كل فى فلك يسبحون) أى والله خلق لكم الليل والنهار نعمة منه عليكم ، وحجة على عظيم سلطانه ، فهما يختلفان عليكم لصلاح معايشكم وأمور دنياكم وآخرتكم ، وخلق الأرض والشمس والقمر تجرى فى أفلاكها كما يجرى السمك فى الماء .

وهذا هو الرأى الحديث، وأن هذه كلها تجرى فى عالم الأثير المالئ لهذا الفضاء ، فالشمس تجرى ، والأرض تجرى ، والقمر يجرى ، و بينها هذه المخلوقات الحية ، فما مثل هذه العوالم إلا كآلة الطباعة ، والمخلوقات كلماتها وسطورها ، أو كدار صناعة تخرج كل يوم مصنوعات جديدة بعد فناء القديمة وزوالها .

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ؟ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) .

شرح المفردات

الخلد : الخلود والبقاء ، الذوق : هنا الإدراك ؛ والمراد من الموت مقدماته من الآلام العظيمة ، والمدرك لذلك هى النفس المفارقة التى تدرك مفارقتها للبدن ، ونبلوكم:

أى نختبركم ؛ والمراد نعاملكم معاملة من يختبركم ، بالخير والشر: أى المحبوب والمكروه ، فتنة : أى ابتلاء ، إن يتخذونك إلا هزوا : أى ما يتخذونك إلا مهزوءا به مسخورا منه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الأدلة على وجود الخالق الواحد القادر ، بما يرون من الآيات الكونية ـ أردف ذلك ببيان أن هذه الدنيا ماخلقت للخلود والدوام ، ولا خلق من فيها للبقاء ، بل خلقت للابتلاء والامتحان، ولتكون وسيلة إلى الآخرة التى هى دار الخلود ، فلا تشمتوا إذا مات محمد صلى الله عليه وسلم فما هذا بسبيله وحده ، بل هذا سنة الله فى الخلق أجمعين .

تمنى رجال أن أموت ، وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذى يبغى خلاف الذى مضى تزوّد لأخرى مثلها فكأنْ قَدِ

ثم ذكر أنهم نعوا على نبيه صلى الله عليه وسلم ذكر آلهتهم التى لاتضر ولاتنفع بالسوء ، ورد عليهم بأنهم قد كفروا بالرحمن المنعم على عباده الخالق لهم المحيى المميت ، ولا شىء أقبح من هذا وأحلق بالذم منه .

أخرج ابن أبى حاتم عن السدى « أنه صلى الله عليه وسلم مرّ على أبى سفيان وأبى جهل وهما يتحادثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال : هذا نبىّ بنى عبد مناف ، فغضب أبو سفيان وقال : أتنكر أن يكون لعبد مناف نبى ؟ فسمعها النبى صلى الله عليه وسلم فرجع إلى أبى جهل فوقع به وخوّفه وقال : ماأراك منتهيا حتى يصيبك ما أصاب عمك الوليد بن المغيرة ، وقال لأبى سفيان : أما إنك لم تقل ما قلت إلا حميّة فنزلت الآية » .

الإيضاح

(وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) أى وما كتب لأحد من قبلك البقاء فى الدنيا حتى نبقيك فيها ، بل قدر لك أن تموت كما مات رسلنا من قبلك .

(أفائن مت فهم الخالدون ؟) أى أفهؤلاء المشركون بربهم هم الخالدون بعدك ؟ لا — ماذلك كذلك ، بل هم ميتون ، عشت أو مِتّ .

أخرج البيهقى وغيره عن عائشة قالت : دخل أبو بكر على النبى صلى الله عليه وسلم وقد مات فقبّله وقال وانبياه ، واخليلاه ، واصفياه ، ثم تلا : وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد الآية .

ثم أكد ماسلف و بين أن أحدا لايبقى فى هذه الدنيا فقال :

(كل نفس ذائقة الموت) أى كل نفس منفوسة من خلقه ذائقة مرارة الموت ومتجرعة كأسه وشدة مفارقة الروح للبدن ، وقد جاء فى الحديث « إن للموت لسكرات» فلا يفرحنّ أحد لموت أحد ولا يظهرن التشفّى منه ، كما لاينبغى أن تبدو عليه علامات الجزع والحسرة لموت أحد .

(ونبلوكم بالشر والخير فتنة) أى ونختبركم أيها الناس بالمضار الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد ، و بنعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكين من حصول ماتريدون ، لنرى أتصبرون فى المحن وتشكرون فى المنح ؟ فيزداد ثوابكم عند ربكم إذا قمتم بأداء ذلك ، والقيامُ بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر ، فالمنحة أعظم البلاءين ؛ ومن ثم قال عمر رضى الله عنه : بلينا بالضراء فصبرنا ، و بلينا بالسراء فلم نصبر ، وقال على كرم الله وجهه : من وسع عليه دنياه فلم يعلم أنه قد مُكِرَ به فهو مخدوع عن عقله .

وخلاصة ذلك — إنا نعاملكم معاملة من يختبركم ونفتنكم كما يفتن الذهب إذا أريد تصفيته بالنار عما يخالطه من الغش ، لنرى أتصبرون فى الشدائد ، وتشكرون حين الرخاء ؟ .

(و إلينا ترجعون) فنجازيكم وفق مايظهر من أعمالكم .
ولا يخفى مافى هذا من الوعد والوعيد بالثواب والعقاب .

(و إذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا) أى و إذا رآك المشركون لم يكن لهم عمل إلا أن يجعلوك موضع السخرية والهزؤ ، وقد كان من حقهم أن يفكروا مليًّا فيما يشاهدون من أخلاقك وآدابك ، وفيما ينزل عليك من الوحى الذى فيه عظة وذكرى لقوم يعقلون ، لعل بصائرهم تستنير وطباعهم ترق ، وقلوبهم ترعوى عن غيها ، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم : « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ » .

(أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون) أى ويقولون استنكارا وتعجبا : أهذا الذى يسب آلهتكم ويسفّه أحلامكم ؟ وكيف يعجبون من ذلك وهم كافرون بالله الذى خلقهم وأنعم عليهم ، و بيده نفعهم وضرهم و إليه مرجعهم ؟ قال الزجاج يقال فلان يذكر الناس أى يغتابهم ويذكرهم بالعيوب ، وفلان يذكر الله أى يصفه بالتعظيم و يثنى عليه .

وخلاصة ذلك — كيف يعجبون من نبز آلهتهم بالسوء ، وهم قد كفروا بربهم الذى برأهم وصورهم فأحسن صورهم ، و إليه مرجعهم فيحاسبهم على النقير والقطمير.

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٤٠) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١) .

شرح المفردات

العجل والعجلة : طلب الشيء قبل أوانه ، والمراد بالإنسان: هذا النوع وقد جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق من العجل مبالغة كما يقال للرجل الذكى هو نار تشتعل ، ويقال لمن يكثر منه الكرم : فلان خُلق من الكرم ، قال المبرد : خلق الإنسان من عجل : أى إن من شأنه العجلة كقوله : « خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ » أى ضعفاء ، والآيات هى آيات النقم التى هددهم بوقوعها و إراءتهم إياها : إصابتهم بها ، والمراد بالوعد قيام الساعة ، لا يكفّون : أى لا يمنعون ، بغتة : أى فجأة، تبهتهم : أى تدهشهم وتحيرهم ، يُنظَرون : أى يمهلون و يُؤَخَّرون ، حاق : حل ونزل .

المعنى الجملى

بعد أن بين جلت قدرته أنه كلما آتى المشركين آية كفروا بها ، وكلما توعدهم بالعذاب كذبوا به وقالوا تهكما و إنكارا : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ - قفى على ذلك بنهيهم عن العجلة و بيان أن ما أوعدوا به آت لامحالة ، ثم أرشد إلى أن العجلة من طبيعة الإنسان التى جبل عليها ثم ذكرهم بجهلهم بما يستعجلون ، فإنهم لو عرفوا كنهه ما طلبوا ما دار بخلدهم ذلك المطلب .

وفى هذا تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم كما سلاه بأن الاستهزاء به و بما أتى به ليس بدْعا من المشركين ، فكثير من الرسل قبله أوذوا واستهزئ بهم، وكان النصر آخرا حليفهم وحاق الهلاك بالمكذبين ، فانتظر لهؤلاء يوما يحل بهم فيه مثل ما حل بمن قبلهم وقل لهم : انتظروا إنا منتظرون .

روى أن الآية نزلت فى النضر بن الحارث، وهو القائل : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

الإيضاح

(خلق الإنسان من عجل) أى إنه تعالى فطر هذا النوع على العجلة ، وجعلها من سجيته وجبلَّته ، فليس بعجيب من المشركين أن يستعجلوا عذاب الله ونزول نقمته بهم ، وقد كان من الحق عليهم أن يتلبثوا قليلا فإن الله سينزل بهم من سخطه مثل ما أنزل بالمكذبين قبلهم ، ويُحِل بهم من العذاب ما لاقبل لهم بدفعه ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

(سأريكم آياتى فلا تستعجلون) أى إن نقمى ستصيبكم لامحالة ، فلا تتعجلوا عذابى واصبروا حتى يأتى وعد الله ، إن الله لايخلف الميعاد .

وقد نهى الإنسان عن العجلة مع أنها ركبت فى طبيعته ، من قِبَل أنه أوتى المقدرة التى يستطيع بها تركها وكف النفس عنها .

ثم حكى عنهم بعض ما يستعجلون فقال :

(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) أى ويقولون للنبى صلى الله عليه وسلم ولمن معه من المؤمنين الذين يتلون الآيات المنبئة بقرب الساعة ونزول العذاب بمن كفر بها استهزاء : متى يجيئنا هـذا العذاب الذى تعدوننا به إن كنتم صادقين فى وعدكم ؟ والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الذين يتلون الآيات القرآنية المنذرة بمجىء الساعة وقرب حضور العذاب .

وهذا منهم استبطاء للموعود به يراد به إنكار وقوعه وأنه لن يكون البتة .

ثم بين شديد جهلهم بما يستعجلون وعظيم حماقتهم لهذا الطلب فقال :

(لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولاهم ينصرون) أى لو يعلم هؤلاء الكفار المستعجلون ماذا أعد لهم ربهم من البلاء حين تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ، فلا يستطيعون ردها عن تلك الوجوه ، ولا يدفعونها بأنفسهم عن الظهور ، ولا يجدون ناصرا ينصرهم وينقذهم من ذلك

العذاب ـ لما أقاموا على كفرهم بربهم ولسارعوا إلى التوبة منه ، ولما استعجلوا لأنفسهم هذا النكال والوبال .

وإنما خص الوجوه والظهور لأن مس العذاب لهما أعظم موقعا .

ولما بين شدة العذاب فى ذلك اليوم بين أن وقته لا يكون معلوما لهم فقال :

(بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون) أى بل تأتيهم الساعة وهم لأمرها غير مستعدين ، فتدعهم حائرين لا يستطيعون حيلة فى ردها ، ولا منصرفا عما يأتيهم منها ، ولا هم يمهلون لتوبة ولا لتقديم معذرة فقد فات ما فات وأحاط بهم ما كانوا به يستهزئون .

وإنما لم يعلم الله عباده وقتها لما فى ذلك من فائدة ، فإن المرء يكون مع جهله بها أشد حذرا وأقرب إلى التلافى وانتهاز الفرصة .

ثم سلى رسوله عن استهزائهم به فقال :

(ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) أى ولقد استهزئ برسل من رسلنا الذين أرسلناهم قبلك إلى أممهم ، فنزل بالذين استهزءوا بهم العذاب والبلاء الذى كانت الرسل تخوفهم نزوله ، ولن يعدو أن يكون أمر هؤلاء الكفار كأمر أسلافهم من الأمم المكذبة لرسلها ، فينزل بهم من عذاب الله وسخطه باستهزائهم مثل ما نزل بمن قبلهم ، فانتظر لهم عاقبة وخيمة كعاقبة أولئك ، وسيكون لك النصر عليهم .

ونحو الآية قوله : « وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ».

قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ

أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) .

شرح المفردات

يكلؤكم : يحرسكم ويحفظكم قاله ابن عباس ، من الرحمن : أى من بأسه وعقابه الذى تستحقونه ، من دوننا : أى من غيرنا ، يصحبون : أى يجارون من عذابنا ؛ تقول العرب أنا لك جار وصاحب من فلان: أى ومجير منه واختاره الطبرى ، نفحة : أى قسط ونصيب ضئيل ، حبة الخردل : مثل فى الصغر ، حاسبين : أى عادّين محصين.

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن الكافرين فى الآخرة لايستطيعون أن يمنعوا عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ، وأنه سيكون لهم من الأهوال مالم يكن يخطر لهم ببال أعقبه ببيان أنه لولا أن الله قدر لهم السلامة فى الدنيا وحرسهم إلى حين لما بقوا سالمين ، وأنه مع إنعامه عليهم ليلا ونهارا بالحفظ والحراسة ـ هم معرضون عن الدلائل الدالة على أنه لاحافظ لهم سواه ، وأنه قد كان ينبغى لهم أن يتركوا عبادة الأصنام التى لاحظ لها فى شىء من ذلك ، فهى لاتستطيع أن تحفظ نفسها من الآفات ،

فضلا عن منع بأس الله إن حل بهم ؛ ثم أردف ذلك ببيان أن الذى غرهم وحملهم على الإعراض عن ذلك هو طول الأمد حتى نسوا العهد وجهلوا مواقع النعمة ، وقد كان لهم فى نقص الأرض من أطرافها وفتح المسلمين لها عبرة أيما عبرة ، فهاهم يرون محمدا صلى الله عليه وسلم وأتباعه يفتحون البلاد والقرى حول مكة ويدخلونها تحت راية الإسلام ويقتلون الرؤساء والعشائر من المشركين ، فمن حقهم أن يفكروا فى هذا مليا ويرعووا عن غيهم ويعلموا آثار قدرتنا وأن جندنا هم الغالبون ، ثم قفى على ذلك ببيان أن وظيفة الرسل هى الإنذار والتبليغ ، وليس عليهم الإلزام والقبول ، فإذا كانت القلوب متحجرة ، والآذان صماء ، فماذا تجدى العظة وماذا ينفع النصح ، ولئن أصابهم القليل من عذاب الله لتنادوا بالويل والثبور ، واعترفوا على أنفسهم بأنهم كانوا ظالمين — ثم قفى على ذلك ببيان أن الدار الآخرة لا ظلم فيها ولا محاباة : فالمرء يحاسب فيها على الجليل والحقير ، فهناك تنصب موازين العدل ويجازى كل امرئ بما قدم من خير أو شر : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

الإيضاح

(قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن) أى سل أيها الرسول أولئك المستهزئين سؤال إنكار وتوبيخ ، من يستطيع أن يحفظكم من الرحمن إذا أراد أن ينزل بكم بأسه وعذابه الذى تستحقونه ؟

والخلاصة — من يحفظكم بالليل إذا نمتم ، وبالنهار إذا تصرفتم فى أموركم معايشكم من عذاب الرحمن إن نزل بكم ، ومن بأسه إذا حل بساحتكم ؟

وفى ذكر (الرحمن) إيماء وتنبيه إلى أنه لا حفظ لهم إلا برحمته ، وإلى أن بأسه أليم شديد ، وإلى أنه قد عذبهم من غلبت رحمته قسوته ، جزاء وفاقا بما دسوا به أنفسهم من فاسد الطوايا ، وسىء الأعمال .

ثم ذكر أنهم قد غفلوا عن الكالئ الحافظ فقال :

(بل هم عن ذكر ربهم معرضون) أى إن هؤلاء القوم قد ألهتهم النعم عن المنعم فلا يذكرون الله حتى يخافوا بأسه ، أو يعدّوا ما كانوا فيه من الأمن والدعة كلاءة وحفظا لهم ، حتى يسألوا عن الكالئ الحافظ .

وخلاصة ذلك — إنهم على وجود الدلائل العقلية والنقلية الدالة على أنه تعالى هو الكالئ الحافظ ـ معرضون عنها ، لا يتأملون فيها .

وفى ذكر (الرب) إيماء إلى أنهم خاضعون لسلطانه ، وأنهم فى ملكوته وتدبيره ، وجميل رعايته وتربيته ، وهم على ذلك معرضون ، فهم فى الغاية القصوى من الضلال وفى النهاية من الجهل والغباء .

ثم انتقل من وصفهم بالإعراض إلى توبيخهم باعتمادهم على آلهة لا تضر ولا تنفع فقال :

(أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ؟) أى بل ألهؤلاء المستعجلى عذاب ربهم آلهة تمنعهم منه إن نحن أنزلناه بهم ، وتدفع عنهم بأسنا إن حل بساحتهم ؟ .

ومجمل ذلك — إن آلهتهم لا تمنعهم بأسنا إن أردنا ؟ .

ثم وصف تلك الآلهة التى اتخذوها بالضعف فقال :

(لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون) أى وكيف تستطيع آلهتهم أن تمنعهم منا وهم لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا دفع ما ينزل بهم من البلاء ، ولا هم يصحبون منا بنصر ، فكيف يتوهم أن ينصروا غيرهم .

والخلاصة — إنهم فى غاية العجز ، فكيف يتوهم فيهم ما يتوهمون من القدرة والسلطان ، ويدينون لهم بالخضوع والعبادة .

ثم بين سبحانه تفضله عليهم مع سوء ما أتوا به من الأعمال فقال :

(بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر) أى إن الذى غرهم وحملهم على

ماهم فيـه من الضلال أنهم مُتعوا فى الحياة الدنيا ونعموا بها وطال عليهم العمر حتى اعتقدوا أنهم على شىء .

وقصارى ذلك — إنهم طالت أعمارهم وهم فى الغفلة فنسوا عهدنا ، وجهلوا مواقع نعمتنا فاغتروا بذلك ولم يعرفوا مواضع الشكر .

ثم بين لهم سوء مغبتهم فقال :

(أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ؟) أى أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون للعذاب آثار قدرتنا فى إتيان الأرض من جوانبها ، ففتحناها للمؤمنين وزدناها فى ملـكهم واقتطعناها من أيدى المشركين ؟ فقد تم لهم فتح البلاد التى حوالى مكة وقتل رؤسائها و إزالة دولة الشرك وأهله منها ، ألا يفكرون فى هذا فيكون لهم فيه مزدجر لو كانوا يعقلون ؟ .

والخلاصة — ألا يعتبرون و يحذرون أن ينزل بهم بأسنا كما أنزلناه بسواهم ؟ .

ثم وبخهم وأنبهم على غفلتهم عن الحق بعد وضوحه فقال :

(أفهم الغالبون ؟) أى أفهم الغالبون أم نحن ؟ أى أفبعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم إياه يتوهمون غلبتهم ؟ .

و بعد أن بين هول مايستعجلون ، وحالهم السيئة حين نزوله بهم ، ثم نعى عليهم جهلهم و إعراضهم عن ذكر ربهم الذى يكلؤهم من طوارق الليل وحوادث النهار ، أمر رسوله أن يقول لهم : إن ما أخبركم به جاء به الوحى الصادق فقال :

(قل إنما أنذركم بالوحى) أى إنى إنما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة وشديد أهوالها — بالوحى الصادق الناطق بحصوله وفظاعة أهواله ، وقد أمرنى ربى بذلك ، وهأنذا قد قمت بما أمرنى به ، فإن لم تجيبوا داعى الله وتقبلوا ما دعوتكم إليه فعليكم النكال والوبال لاعلىّ .

ثم أردف هذا بأن الإنذار مع مثل هؤلاء لايجدى فتيلا ، فما حالهم إلا حال الصم الذين لايسمعون دعوة الداعى فقال :

(ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون) أى فما مثلهم إذ لم ينتفعوا بما سمعوا من الإنذار على كثرته وتتابعه إلا مثل الصم الذين لا يسمعون شيئا ، إذ ليس الغرض من الإنذار السماع فحسب ، بل العمل بما يسمع بالإقدام على فعل الواجب والتحرز من المحرم ومعرفة الحق ، فإذا لم يحصل شىء من هذا فلا جدوى فى السمع وكأن لم يكن.

والخلاصة — إن الكافر بالله لا يوجه همه إلى العظة بما فى كتابه من المواعظ حتى يقلع عما هو عليه مقيم من الضلال ، بل يعرض عن التفكر فيها فعل الأصم الذى لا يسمع ما يقال له حتى يعمل به .

ثم بين سرعة تأثرهم من العذاب حين مجيئه إثر بيان عدم تأثرهم به حين مجىء خبره فقال :

(ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين) أى ولئن أصاب هؤلاء المستعجلين للعذاب أدنى قسط من عقاب ربك بكفرهم به وتكذيبهم برسوله — ليقولنّ إنا كنا ظالمين لأنفسنا بعبادتنا الآلهة والأنداد وتركنا عبادة الذى برأنا وأنعم علينا ، وجحدنا لما يجب علينا من الشكر له بالإخلاص فى عبادته .

والخلاصة — إنهم يوم القيامة حين يمسهم العذاب يدعون على أنفسهم بالويل والثبور وعظائم الأمور ويقولون هلاكنا ، إنا ظلمنا أنفسنا بكفرنا بمن خلقنا وخضوعنا لمن لا يضر ولا ينفع ، ويندمون على ما فرط منهم ، ولات ساعة مندم .

ثم بين الأحداث التى ستقع حين إتيان ما أنذروا به فقال :

(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) أى ونحضر يوم القيامة الموازين العادلة التى توزن بها صحائف الأعمال ، وهذا قول أئمة السلف ، وقال مجاهد وقتادة والضحاك المراد من الوزن العدل بينهم ، فلا يظلم عباده مثقال ذرة ، فمن أحاطت حسناته بسيئاته ثقلت موازينه : أى ذهبت حسناته بسيئاته ، ومن أحاطت سيئاته بحسناته خفت موازينه : أى ذهبت سيئاته بحسناته .

(فلا تظلم نفس شيئا) أى فلا تظلم أى نفس شيئا من الظلم ، فلا ينقص ثوابها الذى تستحقه ، ولا يزاد عذابها الذى كان لها على قدر ما دست به نفسها من سيئ الأعمال .

(وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها) أى وإن كان العمل الذى فعلته النفس صغيرا مقدار حبة الخردل جازينا عليه جزاء وفاقا ، سيئا كان أو حسنا .

(وكفى بنا حاسبين) أى وحَسْب من شهدوا ذلك الموقف بنا حاسبين لأعمالهم محصين لها ، لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم وما سلف منهم فى الدنيا من صالح أو سيئ منا.

ولا يخفى مافى الآية من التحذير وشديد الوعيد للكافرين على ما فرطوا فى جنب الله ، فإن المحاسب إذا كان عليما بكل شىء ولا يعجز عن شىء كان جديرا بالعاقل أن يكون فى حذر وخوف منه .

نزول التوراة على موسى عليه السلام

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ؟ (٥٠) .

شرح المفردات

الفرقان: هى التوراة ، وهى الضياء والموعظة، وكانت فرقانا لأنها تفرق بين الحق والباطل ، وكانت ضياء لأنها تنير طريق الهدى للمتقين ، وكانت موعظة لما فيها من عبرة للسالكين سبل النجاة ، يخشون ربهم : أى يخشون عذابه ، مشفقون : أى خائفون مبارك : أى كثير الخير غزير النفع .

المعنى الجملى

بعد أن أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : إنما أنذركم بالوحى — أردفه ببيان أن هذه سنة الله فى أنبيائه ، فكلهم قد آتاهم الوحى و بلغهم من الشرائع والأحكام ما فيه هداية للبشر وسعادة لهم فى دنياهم وآخرتهم .

الإيضاح

(ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين) أى قسما لقد آتيناهما كتابا جامعا لأوصاف كلها مدح وفخار ، فهو كتاب فارق بين الحق والباطل ، وضياء يستضاء به فى ظلمات الجهل والغواية ، وعظة يتعظ بها من يتعظ و يتذكر بها ما يجب لله من اعتقاد وعمل وما ينبغى سلوكه من أدب وفضيلة .

ثم ذكر أوصاف المتقين فقال :

(١) (الذين يخشون ربهم بالغيب) أى إن المتقين يخافون عذاب ربهم وهو غائب عنهم غير مرئىّ لهم .

ونحو الآية قوله تعالى : « مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ » وقوله : « الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » .

(٢) (وهم من الساعة مشفقون) أى وهم من عذاب يوم القيامة وسائر أحوالها خائفون وجلون .

و بعد أن ذكر فرقان موسى وكان العرب يشاهدون تمسك اليهود به — حثهم على التمسك بالكتاب الذى نزله على رسوله صلى الله عليه وسلم فقال :

(وهذا ذكر مبارك أنزلناه) أى وهذا القرآن الذى أنزلناه إلى محمد صلى الله عليه وسلم ذكر لمن تذكر به ، وموعظة لمن اتعظ بها ، وهو كثير النفع والخير لمن اتبع أوامره وانتهى بنواهيه .

و بعد أن أبان صفة هذا الكتاب و بخهم على إنكارهم له فقال :

(أفأنتم له منكرون ؟) أى أفبعد أن استبان لكم جليل خطره وعظيم أمره تنكرون وتقولون هو أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون .

وقد يكون المعنى — كيف تنكرون كونه منزلا من عند الله ؟ وأنتم من أهل اللسان تدركون مزايا الكلام ولطائفه ، وتفهمون من بلاغة القرآن ما لا يدركه غيركم وفيه شرفكم وصيتكم .

وخلاصة ذلك — أفبعد أن علمتم أن شأنه كشأن التوراة أنتم تنكرون أنه منزل من عند الله ؟ فهذا ما لا يستسيغه عقل راجح ولا فكر رصين ، فمثل هذا فى غاية الوضوح والجلاء .

حجاج إبراهيم لأبيه وقومه ودعوتهم إلى التوحيد

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) .

شرح المفردات

الرشد : هو الاهتداء إلى وجوه الصلاح فى الدين والدنيا والاسترشاد بالنواميس الإلهية ، التماثيل : واحدها تمثال وهو الصورة المصنوعة على شبه مخلوق من صنع الله كطير أوشجر أو إنسان؛ والمراد بها هنا الأصنام سماها بذلك تحقيرا لشأنها ، والعكوف على الشىء: ملازمته والإقبال عليه ، بالحق: أى بالشىء الثابت فى الواقع ، اللاعبين : أى الهازلين ، فطرهن : أى أنشأهن ، من الشاهدين : أى المتحققين صحته المثبتيه بالبرهان ، والكيد : الاحتيال فى إيجاد ما يضر مع إظهار خلافه ، والمراد المبالغة فى إلحاق الأذى بها ، جذاذا : أى قطعا ، من الجذ ، وهو القطع .

الإيضاح

(ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) أى ولقد آتينا إبراهيم ما فيه صلاحه وهداه من قبل موسى وهرون ووفقناه للحق وأضأنا له سبيل الرشاد ، وأنقذناه من بين قومه من عبادة الأصنام ، وكنا عالمين بأنه ذو يقين وإيمان بالله وتوحيد له لايشرك به شيئا ، فهو جامع لأحاسن الفضائل ومكارم الأخلاق وجميل الصفات ، وقال الفراء : أعطيناه هداه من قبل النبوة والبلوغ اه . أى وفقناه للنظر والاستدلال لما جنّ عليه الليل فرأى الشمس والقمر والنجم ، وعلى هذا جرى كثير من المفسرين.

(إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟) أى آتيناه الرشد حين قال لأبيه آزر ولقومه وهم مجتمعون : ما هذه الأصنام التى تقيمون على عبادتها وتعظيمها ؟ .

وقد أراد عليه السلام بهذا السؤال تنبيه أذهانهم إلى التأمل فى شأنها ، وتحقير أمرها ، متجاهلا حقيقتها ، ، وكأنه يومئ بذلك إلى أنهم لو تأملوا قليلا لأدركوا أن مثل هذه الأحجار والخشب لاتغنى عنهم قلّاً ولا كثراً .

ولما لم يجدوا ما يعول عليه فى تعرف حقيقتها لجئوا إلى التشبث بالتقليد دون إقامة الحجة والبرهان .

(قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) أى قال آزر وقومه له : إنا وجدنا آباءنا يعبدون هذه الأوثان فسرنا على نهجهم واقتفينا أثرهم ولا حجة لنا غير ذلك .

وخلاصة مقالهم : ليس لنا برهان على صحة ما نفعل ، وإنما نحن مقلدون للآباء والأجداد ، وكفى بهذا سُبَّة لهم ، فإن الشيطان قد استدرجهم وكاد لهم حتى صفَّروا لها جباههم وجدّوا فى نصرتها ، وجادلوا أهل الحق فيها — وما كان أجدرهم أن يتوارَوا خجلا وحياء ولا يقولوا مثل هذا .

والتقليد هو العصا التى يتوكأ عليها كل عاجز ، والحبل الذى يتشبث به كل غريق ، وهكذا يجيب المقلدة من أهل الملة الإسلامية إذا أنكر عليهم العالم بالكتاب والسنة العمل بالرأى المدفوع بالدليل — بهذا قال إمامنا الذى وجدنا آباءنا له مقلدين ، وبرأيه آخذين وكأنه يقول :

وهل أنا إلا من غُزَيَّةَ إن غَوَتْ غويت وإن ترشد غُزَيَّةُ أرشد

وقد أجابهم إبراهيم ببيان قبح ما يصنعون ، وبكّتهم على سوء ما يفعلون .

(قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين) أى قال لهم : لقد كنتم أيها القوم أنتم وآباؤكم بعبادتكم إياها فى ضلال بيّن ، وجور واضح عن سبيل الحق لمن تأمله بلبه ، وفكّر فيه بعقله .

وخلاصة هذا — إن المقلدين ومن قلدوا فى ضلال بين لايخفى على من لديه أدنى مُسْكة من عقل ، فالفريقان لايستندان إلا إلى هوى متبع ، وشيطان مطاع وقد أحسن من قال :

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضـــح

وفى ذلك إيماء إلى أن الباطل لايصير حقا بكثرة المستمسكين به .

وقد أجابوه إجابة مستفهم متعجب مما يسمع ويرى .

(قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟) أى قالوا حين سمعوا مقالته مستبعدين أنهم فى ضلال ومتعجبين من تضليله إياهم : أجادّ أنت فيما تقول أم أنت لاعب مازح ؟ فإنا لم نسمع بمثله من قبل .

وخلاصة هذا — إنهم لما سمعوا منه مايدل على تحقير آلهتهم وتضليله إياهم وشاهدوا منه الجد فى القول والغلظة فيه ، طلبوا منه الدليل على صدق مايقول إن كان جادا ، ثم ارتقوا من هذا إلى بيان أنه هازل لاعب كما هو دأبه وعادته من قبل ولا يقصد بذلك إظهار حق البتة .

فردّ عليهم منتقلا من تضليلهم فى عبادة الأوثان إلى بيان الحق وذكر المستحق للعبادة .

(قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن) أى قال لهم : بل جئتكم بالحق لا اللعب ـ إن الذى يستحق العبادة من أنشأ السموات والأرض على غير مثال يحتذى وأنتم مغمورون بجميل عطفه ، وعظيم جوده وبرّه .

وصفوة هذا — إن الجدير بالعبادة هو من ربا كم تحت ظلال عطفه ، وأنعم عليكم بجزيل برّه ولطفه ، وأوجدكم وأوجد السموات والأرض من العدم ، لا من كان بمعزل عن كل ذلك .

وفى هذا إرشاد إلى أنه ينبغى لهم أن يرعووا عن غيهم ويعلموا من يستحق أن يعبدوه ويخضعوا له ، وبذلك يهتدون إلى الطريق السوىّ .

ثم ختم مقاله بنفى اللعب والهزل عن نفسه فقال :

(وأنا على ذلكم من الشاهدين) أى وأنا أدلى على ما أقول بالحجة كما تصحح الدعوى بالشهادة ، وأبرهن عليه كما تبين القضايا بالبينات ، فلست مثلكم أقول مالا أقدر على إثباته ، فإنكم لم تقدروا على الاحتجاج على مذهبكم ، ولم تزيدوا على أن تقولوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون .

وقصارى ما أقول : لست من اللاعبين الهازلين ، بل من العالمين بذلك

بالبراهين القاطعة ، والحجج الساطعة كالشاهد الذى يكون قوله الفصل فى إثبات الدعوى ، و إحقاق الحق .

و بعد أن أقام البرهان على إثبات الحق أتبعه بالتهديد لهدم الباطل ومحو آثاره وأنه سينتقل من المحاجة القولية إلى تغيير المنكر بالفعل ثقة بالله ومحاماة عن دينه ، جمعا بين القول والفعل .

(وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) أى وتالله القوى العظيم لأجتهدن فى كسر أصنامكم و إلحاق الأذى بها بعد أن تذهبوا إلى عيدكم ، وقد فعل ذلك عليه السلام ليرشدهم إلى ماهم فيه من الضلال ، و يبين لهم خطأهم على ألطف أسلوب وأتم وجه .

وفى التعبير بالكيد إيذان بصعوبة انتهاز الفرصة وتوقفها على استعمال الحيلة فى كل زمان ، ولا سيما زمن تمرود على عتوه واستكباره ، وقوة سلطانه ، وتهالكه على نصرة دينه .

قال مجاهد وقتادة : قال إبراهيم هذه المقالة سرا من قومه ولم يسمع ذلك إلا رجل واحد فأفشاه عليه وقال إنا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم .

وقال السُّدّى : كان لهم فى كل سنة مجمع عيد وكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ثم عادوا إلى منازلهم ، فلما كان ذلك العيد قال آزر: يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا ، فخرج معهم ، ولما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه وقال إنى سقيم أشتكى برجلى ، فلما مضوا نادى فى آخرهم وقد بقى فيهم ضعفاء الناس : تالله لأكيدنّ أصنامكم ، فسمعوها منه ، ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة وهى فى بهو عظيم ، وكان مستقبل هذا البهو صنم عظيم إلى جنبيه أصغر منه والأصنام بعضها إلى جنب بعض ، كل صنم يليه أصغر منه إلى باب البهو ، و إذا هم قد جعلوا طعاما فوضعوه بين يدى الآلهة وقالوا إذا رجعنا و باركت الآلهة عليه أكلنا منه ، فلما نظر إبراهيم إليهم و إلى مابين أيديهم من الطعام قال لهم

مستهزئا : ألا تأكلون ، فلما لم يجيبوه قال لهم : مالكم لاتنطقون ؟ وراغ عليهم ضربا باليمين ، وجعل يكسرهن بفأس فى يده حتى إذا لم يبق إلا الصنم الأكبر علق الفأس فى عنقه ثم خرج فذلك قوله :

(فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم) أى فتولوا فأتى إبراهيم الأصنام فجعلهم قطعا قطعا إلا كبيرا لهم لم يكسره .

(لعلهم يرجعون) أى لعل هؤلاء الضلال يرجعون إلى الكبير كما يُرجَع إلى العالم فى حل المشكلات ، فيقولون له : ماهؤلاء مكسورة ومالك صحيحا والفأس فى عنقك أو فى يدك ؟ وحينئذ يستبين لهم أنه عاجز لاينفع ولا يضر ويظهر لهم أنهم فى عبادتهم على جهل عظيم .

وقد كان هذا بناء على ظنه فى أمرهم لما جرب وذاق من مكابرتهم لعقولهم فى آلهتهم وتعظيمهم لها .

فلما عادوا إلى أصنامهم فوجدوها على تلك الحال .

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥)

شرح المفردات

يذكرهم : أى يعيبهم ويسبهم ، على أعين الناس : أى على رءوس الأشهاد فى الملأ ، يشهدون : أى بفعله أو قوله ، فرجعوا إلى أنفسهم : أى ففكروا وتدبروا ،

الظالمون : أى الظالمون لأنفسكم بغفلتكم عن آلهتكم وعدم حفظكم إياها ، ويقال نكسته : أى قلبته فجعلت أعلاه أسفله، والمراد أنهم بعد أن أقروا أنهم ظالمون انقلبوا من تلك الحال إلى المكابرة والجدل بالباطل .

الإيضاح

(قالوا من فعل هذا بآلهتنا ؟) أى قال قوم إبرهيم على سبيل التوبيخ والتأنيب حين رأوا آلهتهم قد صارت جذاذا إلا الذى علق فيه إبرهيم الفأس : من كسر هذه الآلهة وجعلها هكذا ؟

وفى تعبيرهم بالآلهة دون الأصنام تشنيع ومبالغة فى اللوم والتعنيف .

(إنه لمن الظالمين) أى إنه لمن زمرة الذين ظلموا أنفسهم وجرءوا على إهانة هذه الآلهة ، وهى الحقيّة بالإعظام والتكريم .

(قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) أى قال بعض منهم ممن سمع قوله تالله لأكيدن أصنامكم : سمعنا فتى يعيبهم ويستهزئ بهم ولم نسمع أحدا يقول ذلك غيره ، وإنى لأظن أنه صنع ذلك بهم .

(قالوا فأتوا به على أعين الناس) أى قال أولئك القائلون من فعل هذا بآلهتنا: إذا كان الأمر كما ذكرتم فأتوا به بمرأى من الناس ومسمع .

(لعلهم يشهدون) أنه الذى فعل ذلك ، فتكون شهادتهم عليه حجة لنا .

(قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابرهيم ؟) أى فلما أتوا به قالوا له أأنت الذى كسر هذه الأصنام وجعلهم جذاذا ؟ وقد طلبوا منه الاعتراف بذلك ليقدموا على إيذائه وهم مقتنعون بصحة هذه الجريمة فى زعمهم ، فما كان منه إلا أن بادرهم بما أدهشهم حتى تمنوا الخلاص منه فقال :

(بل فعله كبيرهم هذا) أى بل الذى فعل هذا هو الصنم الأكبر الذى لم يكسر .

و إيضاح هذا — أن إبراهيم عليه السلام لما رأى تعظيمهم لهذا الصنم أشد من تعظيمهم لسائر ما معه من الأصنام غضب أشد الغضب وأسند إليه الفعل الصادر منه هو — من قِبَل أنه هو الذى حمله على ذلك ، وهو يومئ بذلك إلى مقصده وهو إلزامهم الحجة على ألطف وجه وأحسنه ، مع حملهم على التأمل فى شأن آلهتهم .

ومجمل كلامه — إن شديد غضبى من تعظيمكم له حملنى على أن أفعل هذا ، والفعل كما ينسب إلى المباشر له ينسب إلى الباعث عليه ؛ فهذا الصنم الأكبر قد كان السبب فى استهانتى بهم وتحطيمى إياهم .

(فاسألوهم إن كانوا ينطقون) أى فاسألوهم عن كسرها ليخبروكم به إن كانوا ممن ينطق على زعمكم أنهم آلهة تنفع وتضر .

وقد كانت مقالة إبراهيم عليه السلام قوية الحجة شديدة الوقع فى نفوسهم ، وكأنما ألقمهم حجرا ، وذلك ما أشار إليه بقوله :

(فرجعوا إلى أنفسهم) أى فرجعوا على أنفسهم باللائمة ، إذ علموا أن مالا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على إلحاق الضرر بمن ألحق به الأذى — يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره أو جلب منفعة له ، وإذا فكيف يستحق أن يكون معبودا ؟ .

ثم بين ملامتهم لأنفسهم بقوله :

(فقالوا إنكم أنتم الظالمون) أى فقال بعضهم لبعض : إنكم أنتم الظالمون بعبادة ما لا ينطق ، وما هذا منكم إلا غرور وجهل بما ينبغى أن تكون عليه حال المعبود .

ثم أبان أنهم أركسوا بعدئذ ورجعوا عن فكرة سليمة لا غبار عليها بوصفهم أنفسهم بالظلم إلى فكرة خاطئة وهى الحكم بصحة عبادتها مع اعترافهم بأن حالهم دون حال الحيوان ، فلا ينبغى لعاقل أن يعبدها فقال :

(ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) أى لقد بلغ الأمر بهم أن قالوا إنما اتخذناهم آلهة مع علمنا بأنهم لا ينطقون ولا يتكلمون فكيف تأمرنا

بسؤالهم ، و إنما قال ينطقون ولم يقل يسمعون أو يعقلون ، مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضا ، من قِبَل أن نتيجة السؤال الجواب ، وأن عدم نطقهم أبلغ فى تبكيتهم.

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) .

شرح المفردات

أف : كلمة تدل على أن قائلها متضجر متألم من أمر ، والكيد : المكر والخديعة .

المعنى الجملى

بعد أن أقروا على أنفسهم بأنْ لافائدة فى آلهتهم ، قامت لإبراهيم الحجة عليهم فوبخهم على عبادة ما لايضر ولا ينفع ، إذ هذا ما لاينبغى لعاقل أن يقدم عليه ، و بعد أن دحضت حجتهم وبان عجزهم انقلبوا إلى العناد واستعمال القوة الحسية إذ أعيتهم الحجة فقالوا حرقوا إبراهيم بالنار وانصروا آلهتكم التى جعلها جذاذا ، ولكن الله سلمه من كيدهم وجعل النار بردا وسلاما عليه .

الإيضاح

(قال أفتعبدون من دون الله ما لاينفعكم شيئا ولا يضركم ؟) أى قال إبراهيم مبكتا لهم : أفتعبدون غير الله معبودات لاتنفعكم شيئا فتعلقوا رجاءكم بها ، ولاتضركم شيئا فتخافوها .

(أف لكم ولما تعبدون من دون الله) أى تبا لكم ولقبحا لمعبوداتكم التى اتخذتموهم من دون الله .

(أفلا تعقلون ؟) أى أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الذى لا يروج إلا على جاهل فاجر، وأنتم الشيوخ الذين بلوا الزمان حلوه ومره وحنكتهم تجارب الأيام ، فمن حقكم أن تعاودوا الرأى وتقلبوه ظهرا لبطن ، لعلكم ترشدون بعد الضلال ، وتهتدون بعد الغى والعمى .

ولما بان عجزهم وحصحص الحق لجئوا إلى الغاظة واستعمال القسوة ، وذلك ما أشار إليه بقوله :

(قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) أى قال بعضهم لبعض : حرقوا إبراهيم بالنار وانصروا آلهتكم إن كنتم ناصريها ، ولا تريدون خذلانها وترك عبادتها.

ثم أبان سبحانه أنه أبطل كيدهم ودفع عنه هلاكا محققا بمعونته وتأييده فقال :

(قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم) أى فأوقدوا له نارا ليحرقوه ثم ألقوه فيها فقلنا للنار : يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم أى ابردى بردا غير ضارّ به.

روى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لما ألقى إبراهيم فى النار قال : اللهم إنك فى السماء واحد ، وأنا فى الأرض واحد أعبدك .

(وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين) أى وأرادوا بإبراهيم مكرا لإيصال الأذى به فجعلناهم من ذوى الخسران والوبال إذ صار سعيهم فى إطفاء نور الحق قولا وفعلا ــ برهانا على أنه عليه السلام على الحق وهم على الباطل ، وأنهم استحقوا أشد العذاب .

وفى هذا القصص من العبرة ــ أن الجهاد لنصرة الحق والفضيلة فيه الخير كل الخير ، وأنه مهما صادف المرء فيه من آلام وأهوال فهى هينة لينة ، فلنجاهد إذا مثل ما جاهد إبراهيم ، فإن متنا أو قتلنا فإن ما يصيبنا فى سبيل الحق يكون لنا عزا وشرفا .

وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) .

شرح المفردات

لوط : هو ابن أخى إبراهيم : قاله ابن عباس ، والأرض هى أرض الشام .

نافلة : أى عطية ومنحة ، حكما : أى نبوة ، القرية : هى سدوم التى بعث إليها لوط ، والخبائث : الأعمال الخبيثة التى يستقذرها أرباب الفطر السليمة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أكرم به إبراهيم من نجاته من النار — قفى على ذلك ببيان أنه أخرجه من بين قومه مهاجرا إلى بلاد الشام وهى الأرض المباركة ، ثم وهب له من الذرية إسحق وابنه يعقوب عليهما السلام وكانا أهل صلاح وتقوى يقتدى بهما ويأتمر بأمرهما ، ثم أردف ذلك بذكر ما آتاه لوطا من العلم والنبوة وجعله يعزف عن مفاسد تلك القرية التى كان يقيم فيها بين ظهرانىْ أهلها وقد أهلكهم الله جميعا وأنجاه هو وأهله وأدخله فى جنات النعيم ، وقرّبه إلى حظيرة قدسه ، وساحة رحمته .

الإيضاح

(ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) أى إنه تعالى أتم عليه النعمة فأنجاه وأنجى لوطا معه إلى الأرض التى باركها بكثرة ما بعث فيها من الأنبياء

الذين انتشرت شرائعهم فى أقاصى المعمور ، فهى أس الخيرات الدينية والدنيوية ، لكثرة خصبها وأشجارها وثمارها وأنهارها .

وقد خرج إبراهيم من كُوثَى من أرض العراق ومعه لوط وسارة يلتمس القرار بدينه والأمان على عبادة ربه حتى نزل حرّان فمكث بها ما شاء الله ، ثم خرج منها وجاء إلى مصر ، ثم رجع إلى الشام ونزل بفلسطين وترك لوطا بالمؤتفكة وهى مسيرة يوم وليلة منها .

ثم ذكر ما أفاضه من النعم على إبراهيم فقال :

(١) (ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة) أى ووهبنا لإبراهيم إسحق ولدا ويعقوب ولد ولد ، عطية وفضلا لاجزاء مستحقا .

(٢) (وكلا جعلنا صالحين) أى وجعلنا كلا من إبراهيم وإسحق ويعقوب مطيعين لربهم مجتنبين محارمه .

(٣) (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) أى وجعلناهم أئمة يدعون الناس إلى دين الله تعالى وإلى الخيرات بأمرنا وإذننا .

(٤) (وأوحينا إليهم فعل الخيرات) أى وأوحينا إليهم فيما أوحينا أن افعلوا الطاعات واتركوا المحرمات .

(٥ ، ٦) (وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) أى وأوحينا إليهم أن أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وقد خصهما بالذكر من بين سائر العبادات ، لأن الصلاة أشرف العبادات البدنية ، والزكاة أفضل العبادات المالية ، والمال شقيق الروح ، ومجموع العبادتين تعظيم الخالق والشفقة على المخلوق .

وبعد أن بين صنوف نعمه عليهم ذكر اشتغالهم بعبادته فقال :

(وكانوا لنا عابدين) أى وكانوا خاشعين لايستكبرون عن طاعتنا وعبادتنا ولا يخطر لهم ببال سواها .

وفى هذا إيماء إلى أنه تعالى حين وفى لهم بعهد الربوبية من الإحسان والإنعام وفوا له بعهد العبودية وهو الاشتغال بالطاعة والعبادة .

و بعد أن ذكر ما أنعم به على ابراهيم أتبعه بذكر ما أنعم به على لوط فقال :

(١) (ولوطا آتيناه حكما) أى وآتينا لوطا الحكم وهو حسن الفصل بين الخصوم فى القضاء .

(٢) (وعلما) بأمر دينه وما يجب عليه لله من واجب الطاعة والإخبات إليه.

(٣) (ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث) أى ونجيناه من عذابنا الذى أحللناه بأهل تلك القرية التى كانت تعمل خبيث الأعمال التى من أشنعها إتيان البيوت من غير أبوابها .

ثم بين السبب الذى دعاهم إلى ذلك فقال :

(إنهم كانوا قوم سوء فاسقين) أى إن الذى حملهم على ذلك وجرأهم على ارتكابه أنهم كانوا خارجين عن طاعة الله منتهكين حرماته ، قد دنسوا أنفسهم بقبيح الأفعال والأقوال ، فلا عجب إذا هم لجوا فى طغيانهم يعمهون .

(٤) (وأدخلناه فى رحمتنا) أى وجعلناه فى جملة من يستحقون رحمتنا ولطفنا بإدخاله جنتنا كما جاء فى الحديث الصحيح : «قال الله عز وجل للجنة : أنتِ رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى » .

ثم ذكر علة هذا بقوله :

(إنه من عبادنا الصالحين) الذين سبقت لهم منا الحسنى ، إذ كان ممن يعملون بطاعتنا ، فيأتمرون بأمرنا وينتهون عن نهينا .

وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) .

شرح المفردات

الكرب : الغم الشديد ؛ والمراد به هنا العذاب النازل بقومه وهو الغرق بعد أن لقى منهم الأذى ، قوم سوء : أى منهمكين فى شرورهم وآثامهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قصة إبراهيم وهو أبو العرب ـ أردفها بقصة نوح وهو الأب الثانى للبشر على المشهور من أن جميع الباقين بعد الطوفان من ذريته عليه السلام .

الإيضاح

(ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) أى واذكر أيها الرسول نبأ نوح إذ نادى ربه من قبلك ومن قبل إبراهيم فسألنا أن نهلك قومه الذين كذبوا الله فيما توعدهم به من وعيده ، وكذبوه فيما آتاهم به من الحق من عند ربه فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » وقال : « إِنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ » فاستجبنا له دعاءه ونجيناه وأهل الإيمان من ولده وأزواجهم مما حل بالمكذبين من الغرق .

روى أنه بعث وهو ابن الأربعين ومكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وعاش بعد الطوفان ستين سنة ، فذلك ألف وخمسون سنة كذا فى التحبير .

(ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا) أى ونصرناه على القوم الذين كذبوا بحججنا وأدلتنا .

(إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) أى فأغرقناهم أجمعين ، لأنهم كانوا يسيئون الأعمال فيعصون الله ويخالفون أوامره ويتصدون لأذى نبيهم ويتواصون جيلا بعد جيل بمخالفة أمره ورفع راية العصيان فى وجهه .

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢).

شرح المفردات

الحرث هنا : الزرع ، والنفش : رعى الماشية فى الليل بلا راع ، وشاهدين : أى حاضرين ، واللبوس : الدروع ، والبأس : الحرب ، والريح العاصف : الشديدة الهبوب ، إلى الأرض التى باركنا فيها : هى أرض الشام ، والغوص : النزول إلى قاع البحار لإخراج شىء منها ، ودون ذلك : أى غير ذلك كبناء المدن والقصور واختراع الصناعات الغريبة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما أنعم الله به على نوح عليه السلام من النعم الجليلة ـ قفى على ذلك بذكر الإحسان العظيم الذى آتاه داود وسليمان عليهما السلام وهو قسمان :

(١) نعم مشتركة بينهم و بين النبيين وهى العلم والفهم وإلى ذلك أشار بقوله وكلا آتينا حكما وعلما .

(٢) نعم خاصة بواحد دون الآخر .

(ا) فأنعم على داود بتسخير الجبال والطير للتسبيح معه ، وتعليم صنعة الدروع للوقاية من أذى الحرب .

(ب) وأنعم على سليمان بتسخير الريح العاصفة التى تجرى بأمره ، وبتسخير الشياطين تغوص فى البحار لتخرج له اللؤلؤ والمرجان ، وتعمل له أعمالا أخرى غير ذلك .

الإيضاح

(وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما) أى واذكر أيها الرسول الكريم نبأ داود وسليمان عليهما السلام حين حكما فى الزرع الذى رعته غنم لقوم آخرين غير صاحب الحرث ليلا فأفسدته ، وكان ربك شاهدا عليما بما حكم به داود وسليمان بين القوم الذين أفسدت غنمهم الحرث وصاحب الحرث ، لايخفى عليه شىء منه ولايغيب عنه علمه ، ففهّم الفتيا فى ذلك لسليمان دون داود ، وقد كان كل منهما فيصلا فى الحكم فى الخصومات ، ذا علم بالدين والتشريع .

وقد روى الرواة فى تفصيل هذه القصة ـ أن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث : إن هذا الرجل أرسل غنمه فى حرثى فلم تبق منه شيئا ، فقال داود : اذهب فإن الغنم كلها لك ، ومرّ صاحب الغنم بسليمان فأخبره بالذى قضى به داود ، فدخل سليمان على داود فقال يا نبى الله : إن القضاء سوى الذى قضيت ، فقال كيف ؟ قال ادفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له منافعها من دَرّها وأولادها وأشعارها ، والحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان ، ثم يترادان فيأخذ صاحب الحرث حرثه وصاحب الغنم غنمه ، فقال داود : القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك .

وجه الرأى لدى كل منهما — إن داود قدر الضرر فى الحرث فكان مساويا

لقيمة الغنم فسلم الغنم للمجنى عليه ، وإن سليمان قدر منافع الغنم بمنافع الحرث فحكم بها ، وكان حكمهما بالاجتهاد دون الوحى ، إذ لو كان به ما أمكن تغييره .

نعم الله على داود عليه السلام

(١) (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين) أى وسخرنا الجبال والطير لداود تقدّس الله معه بحيث تمثل له مسبِّحة ، فيكون ذلك أملك لوجدانه وجميع مشاعره ، فيستغرق فى التسبيح ، وكنا فاعلين لأمثاله ، فليس ذلك ببدع منا وإن كنتم أنتم تعجبون منه ، فإن المستغرقين فى التسبيح والتقديس يحصل لهم من الأنس بالله ما يجعل العالم كله فى نظرهم مسبحا ، وكأن العوالم كلها تنطق لهم به بلسان أفصح من لسان المقال ، ولا يدرك هذا أحد إلا بوجدانه .

ونحو الآية قوله : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـكِنْ لاَتَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » .

(٢) (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم) أى وعلمناه صنعة الدروع وقد كانت صفائح فجعلها حلقا ، فتمنع عنكم إذا لبستموها وتقيكم أعداءكم ـ أذى الحرب من قتل وجرح ونحوهما .

(فهل أنتم شاكرون؟) أى فاشكروا الله على ما يسّره لكم من هذه الصنعة التى تمنع عنكم غوائل الحروب وتقيكم ضرها وعظيم أذاها .

نعم الله على سليمان عليه السلام

ورّث الله سليمان من داود ملكه ونبوته وزاده أمرين أشار إليهما بقوله .

(١) (ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها) أى وسخرنا لسليمان الريح عاصفة شديدة الهبوب تارة ، ورخاء لينة تارة أخرى .

وفى كل حال منهما تجرى بأمره إلى أى بقعة من الأرض المقدسة ، فيخرج هو وأصحابه حين الغداة إلى حيث شاءوا ثم يرجعون فى يومهم إلى منزله بالشام .

وقد رووا أنه كان له بساط من الخشب يضع عليه كل ما يحتاج إليه من أدوات الحرب كالخيل والجمال والخيام والجند ، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته ثم تحركه ثم ترفعه وتسير به ، وتظله الطير لتقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض ، ثم ينزل وتؤخذ الآلات إلى حيث شاء كما قال : « فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ » وقال : « غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ » .

(وكنا بكل شىء عالمين) أى فما آتيناه الملك والنبوة وما سخرنا له الريح تجرى بأمره إلا لعلمنا بما فى ذلك من الحكمة والمصلحة ، وأن قومه سيعرفون نعمتنا فيشكرونها عليها .

(٢) (ومن الشياطين من يغوصون له) أى وسخرنا له من الشياطين من يغوصون له فى البحار ويستخرجون منها اللؤلؤ والمرجان ونحو ذلك .

(ويعملون عملا دون ذلك) أى ويعملون له غير ذلك كبناء المحاريب والتماثيل والقصور والجفان ونحو ذلك .

(وكنا لهم حافظين) أى وكنا حافظين لأعمالهم فلا يناله أحد منهم بسوء ، فكل فى قبضته وتحت قهره لا يجسر على الدنو منه وهو المتحكم فيهم إن شاء حبس وإن شاء أطلق كما قال : « وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ » .

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤) .

شرح المفردات

أيوب : هو أيوب بن أموص اصطفاه الله و بسط له الدنيا وكثر أهله وماله ثم ابتلاه بموت أولاده بسقوط البيت و بذهاب أمواله و بالمرض فى بدنه ثمانى عشر سنة، وسنه إذ ذاك سبعون سنة ، ثم آتاه الله من الأولاد ضعف ما كان وأزال عنه ما به من مرض ، وسيأتى تفصيل قصصه فى سورة ص ، والضرر: شائع فى كل ضرر، والضر (بالضم) : خاص بما فى النفس من مرض وهزال ونحوهما ، والذكرى : التذكرة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص داود وسليمان وما كان منهما من شكر على النعماء ـ أردف ذلك بقصص أيوب لما فيه من صبر على البلاء ، فداود وسليمان شكرا على النعم المترادفة ، وأيوب صبر على النقم النازلة ، فأزيلت عنه .

و إن فى قصصه الذى ذكر هنا وفى مواضع من الكتاب الكريم لعبرا له ولغيره ممن سمع به ، ولفتا لأنظارهم إلى أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وأن الواجب على المرء أن يصبر على ما يناله من البلاء فيها و يجتهد فى القيام بحق الله و يصبر فى حالى السراء والضراء .

الإيضاح

(وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) أى واذكر نبأ أيوب حين دعا ربه وقد مسه الضر والبلاء فقال : رب إنى قد مسنى الضر وأنت أعظم رحمة من كل رحيم .

وقد وصف أيوب نفسه بما يستحق به الرحمة ، ووصف ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بمطلوبه إيماء منه بأن ربه به عليم ، فكأنه يقول : أنا أهل لأن أرحم ،

وأنت الكريم الجواد الذى يرحم ، فأفض علىّ من جودك ورحمتك ما يسعفنى ويدفع الضر عنى فأنت أرحم الراحمين .

وهذا أسلوب من الطلب دقيق المسلك حكيم المنحى .

روى أن امرأته قالت له يوما لو دعوت الله ، فقال : كم كانت مدة الرخاء ؟ فقالت ثمانين سنة ، فقال أستحيى من الله أن أدعوه ، ما بلغت مدة بلائى مدة رخائى .

(فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر) أى فاستجبنا له دعاءه فكشفنا ضره ، وقد كان الذى نزل به امتحانا من الله واختبارا له .

(وآتيناه أهله ومثلهم معهم) أى وأعطيناه فى الدنيا مثل أهله عددا مع زيادة مثل آخر ، فولد له من الأولاد ضعف ما كان .

(رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) أى آتيناه ماذكر رحمة منا لأيوب ، وتذكرة للعابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كما أثيب فى الدنيا والآخرة .

وخلاصة ما سلف — إن أيوب ابتلى فى نفسه وولده وماله ، فابتلى بالمرض وهلاك الأولاد وضياع الأموال امتحانا منه تعالى واختبارا له ، ثم كشف عنه ما به من ضر فشفى من أمراضه التى أصيب بها ، وأنجب من الأولاد ضعف ما كان ، وحسن حاله فى ماله فزال مابه من عُدْم و إقتار .

ولم يصرح القرآن الكريم بما صار اليه من سعة فى المال كما صرح بما صار اليه أمره من كثرة الولد .

وما روى من مقدار مالحقه من الضر فى نفسه حتى وصل الى حد النفرة منه ، وأن الناس جميعا تحاموه وطردوه من مقامه الى ظاهر المدينة فى موضع الكناسة ولم يكن يتصل به الا امرأته التى تذهب اليه بالزاد والقوت — فكل ذلك من الإسرائيليات التى يجب الاعتقاد بكذبها ، لأنه ليس لها من سند صحيح يؤيدها ، ولأن من شروط النبوة ألا يكون فى النبى من الأمراض والأسقام مايتفر الناس منه ، ولأنه متى كان كذلك لا يستطيع الاتصال بهم وتبليغ الشرائع والأحكام إليهم ، وسيأتى لهذا مزيد إيضاح فى سورة ص .

وَإِسْمَاعِيلَ ، وَإِدْرِيسَ ، وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه صبر أيوب عليه السلام ودعاءه ربه وانقطاعه إليه حتى كشف عنه الضر — ثنى على ذلك بذكر هؤلاء الأنبياء الذين صبروا على ما أصابهم من المحن والشدائد .

الإيضاح

(وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين) أى واذكر نبأ هؤلاء الرسل الكرام الذين صبروا على ما ابتلاهم الله به وأخبتوا إليه ، فنالوا رضاه وأدخلهم جنته .

(١) أما إسماعيل: فانه صبر على الانقياد للذبح ، وصبر على المقام ببلد لازرع فيه ولا ضرع ، وصبر على بناء البيت وتكلف المشاق فى ذلك ، وقد أكرمه الله فأخرج من صلبه خاتم النبيين .

(٢) وأما إدريس — أخنوخ — فهو موضع التجلة والاحترام لدى قدماء المصريين وهو المسمى عندهم (أوزيس) ويزعم كثير من الناس أنه أول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وكانوا من قبل يلبسون الجلود ، وأول من اتخذ السلاح عُدّة ، وقد تقدم قصصه بإسهاب فى سورة مريم .

(٣) وأما ذو الكفل — والكفل : الحظ والنصيب — فقد اختلف العلماء فى شأنه ، فمن قائل إنه نبى وهم الأكثرون ، وقالوا إنه ابن أيوب عليه السلام بعثه الله نبيا بعد أبيه وسماه ذا الكفل وأمره بالدعاء الى توحيد الله وأقام عمره بالشام . وقال

أبوموسى الأشعرى ومجاهد لم يكن نبيا بل كان عبدا صالحا استخلفه اليسع عنه على أن يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب ففعل .

(وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين) أى وأدخلنا كل هؤلاء جنات النعيم جزاء لهم على مافعلوا من صالح الأعمال .

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٧٨) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) .

شرح المفردات

النون : الحوت وجمعه نينان ، وذو النون : أى صاحب الحوت وهو يونس بن متى ، مغاضبا : أى غضبان من قومه لتماديهم فى العناد والطغيان ، نقدر عليه : أى نضيق عليه فى أمره بحبس ونحوه ، والظلمات : هى ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل .

الايضاح

(وذا النون إذ ذهب مغاضبا) أى واذكر نبأ يونس عليه السلام حين بعثه الله إلى أهل نينوى (قرية بالموصل) فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته فأبوا عليه وتمادوا فى كفرهم فخرج من بين ظهرانيهم مغاضبا لهم وأوعدهم بالعذاب بعد ثلاث .

فلما تحققوا أنه كائن لامحالة وعلموا أن النبى لا يكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم وفرقوا بين الأمهات وأولادها ، ثم تضرعوا إلى الله وجأروا إليه

بورغت الإبل وفصلانها ، وخارت البقر وعجاجيلها ، وثغت الغنم وسخالها ، فرفع الله عنهم العذاب كما قال : « فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ » .

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم فى سفينة ، فلما وصلوا اللجة تكفأت بهم وأشرفوا على الغرق ، فاقترعوا على رجل منهم يلقونه فى البحر يتخففون منه ، فوقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه ، ثم أعادوها فوقعت القرعة عليه أيضا فأبوا ، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضا كما يرشد إلى ذلك قوله : « فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ » ثم قام يونس وتجرد من ثيابه وألقى بنفسه فى البحر ، فأرسل الله إليه حوتا يشق البحر فالتقمه .

ومعنى مغاضبته قومه أنه أغضبهم بفراقه ومجرته من ديارهم ، لأنهم حين تمادوا فى تكذيبه توعدهم بالعذاب فلم يأتهم لأنهم تابوا ، فكره أن يكون بين ظهرانىْ قوم جربوا عليه الخلف فيما أوعدهم واستحيا منهم ولم يعلم توبتهم التى كانت سبب رفع العذاب عنهم .

وخلاصة ذلك — إن غضبه كان أنفة من ظهور خلف وعده لا كراهية لحكم الله ، وقد بحث عنه قومه فلم يجدوه لأنه نزل إلى سفينة فى البحر هاربا ، فأخرجه الله من الأنبياء أولى العزم كما قال لنبيه : « فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ » أى لاتلق أمرى كما ألقاه .

(فظن أن لن نقدر عليه) أى فظن أن لن نضيق عليه الأمر بالحبس أو بغيره

(فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك) أى فدعا ربه فى الظلمات الثلاث التى سبق ذكرها — سبحانك لا إله غيرك ولا يعجزك شىء .

(إنى كنت من الظالمين) لنفسى بالمبادرة بالهجرة دون أمر منك .

(فاستجبنا له) دعاءه الذى دعا به وأظهر به التوبة على ألطف وجه وأحسنه .

روى ابن جرير والبيهقى فى جماعة عن سعد بن أبى وقاص أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « دعوة ذى النون فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، لم يدعُ بها مسلم ربه فى شىء قط إلا استجاب له » .

وروى عن أنس مرفوعا أنه عليه السلام حين دعا بذلك أقبلت دعوته تحفّ بالعرش فقالت الملائكة هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة ، فقال الله تعالى : أما تعرفون ذلك ؟ قالوا يا رب من هو ؟ قال ذاك عبدى يونس ، قالوا عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عمل متقبَّل ودعوة مجابة ، يا رب أفلا ترحم من كان يصنع فى الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ قال بلى ، فأمر الحوت فطرحه ، فذلك قوله :

(ونجيناه من الغم) الذى ناله حين التقمه الحوت ، فجعلناه يقذفه إلى الساحل بعد ساعات ، قال الشعبى : التقمه ضحى ، ولفظه عشية .

(وكذلك ننجى المؤمنين) من كربهم إذا استغاثوا بنا طالبين رحمتنا ، قال الرازى : شرط كل من يلتجىء إلى الله أن يبدأ بالتوحيد ثم بعده بالتسبيح والثناء ثم بالاستغفار والاعتراف بالذنب ، وسيأتى ذكر هذا القصص فى الصافات و ن .

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ ، وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) .

المعنى الجملى

بين سبحانه فى هذا القصص انقطاع زكريا إلى ربه لمّا مسه الضر بتفرده وأحب أن يكون معه من يؤنسه ويقويه على أمر دينه ودنياه ويقوم مقامه بعد موته

فدعا ربه دعاء مخلص عارف بأنه قادر على ذلك ، وأنه قد انتهت الحال به و بزوجه من كبر وغيره إلى اليأس من الولد على مجرى العادة .

الإيضاح

(وزكريا إذ نادى ربه لاتذرنى فردا وأنت خير الوارثين) أى واذكر خبر زكريا حين طلب أن يهبه الله ولدا يكون من بعده نبيا، فقال خُفية عن قومه : رب لاتدعْنى وحيدا لا ولد لى ولا وارث يقوم بعدى فى النادى ، فإن لم ترزقنى من يرثنى فلا أبالى فإنك خير وارث ، وقد تقدم هـــذا القصص ، مبسوطا فى سورتى آل عمران ومريم .

(فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه) أى فأجبنا سؤله ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه بأن أزلنا عنها الموانع التى كانت تمنعها من الولادة فولدت له بعد أن كانت عقيما .

ثم ذكر السبب فى إجابة مطلبهم فقال :

(إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات) أى لأن زكريا وزوجه ويحيى كانوا يسارعون فى طاعتنا والعمل بما يقربهم إلينا .

(ويدعوننا رغبا ورهبا) أى ويعبدوننا رغبة منهم فيما يرجون من رحمتنا وفضلنا ، وخوفا من عذابنا وعقابنا .

(وكانوا لنا خاشعين) أى وكانوا لنا متواضعين متذللين ، لايستكبرون عن عبادتنا ودعائنا .

وخلاصة ما سلف — إنهم نالوا من الله ما نالوا لاتصافهم بتلك الخلال الحميدة.

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١) .

شرح المفردات

الإحصان : المنع مطلقا ، والفرج فى الأصل : الشق بين الشيئين كالفُرجة ثم أطلق على السوءة ، وكثر حتى صار كالصريح فى ذلك ، والروح هو المعنى المعروف ، ونفخ الروح : هو الإحياء ، آية : أى برهانا ودليلا على قدرة الله .

الإيضاح

(والتى أحصنت فرجها) أى ومريم التى منعت نفسها من قربان الرجال سواء أكان من حلال أم من حرام كما قالت : « وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا » وجاء فى سورة التحريم : « وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا » .

(فنفخنا فيها من روحنا) أى فنفخنا الروح فى عيسى فى بطنها وجعلناه يجرى فى جوفها .

(وجعلناها وابنها آية للعالمين) أى وجعلنا أمرها آية للناس يستدلون به على قدرة الله وحكمته ، ويتدبرون فيما خصا به من الآيات .

أما آيات مريم فمنها :

(١) ظهور الحمل من غير ذكر .

(٢) إن الملائكة كانت تأتيها برزقها كما حكى القرآن قول زكريا لها وردها عليه : « يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ؟ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ » .

وأما آيات عيسى فقد سبق تفصيلها فى سورتى آل عمران ومريم .

إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ

مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤) وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) .

شرح المفردات

الأمة : القوم المجتمعون على أمر ثم شاع استعمالها فى الدين ، وتقطعوا أمرهم بينهم : أى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا ، وحرام : أى ممتنع : وقرية : أى أهلها ، أهلكناها : أى قدرنا هلاكها ، يأجوج ومأجوج تقدم الكلام فيهما وفى بيان أصلهما ، وحدب : أى مرتفع من الأرض ، ينسلون : أى يسرعون ، واقترب : أى قرب ، الوعد الحق : هو يوم القيامة ، شاخصة : أى مرتفعة أجفانها لاتكاد تطرف من شدة الهول ، والويل : الهلاك.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص جمع من الأنبياء كنوح و إبراهيم و إدريس وموسى وعيسى وبيّن ما أوتوا من الشرائع والأحكام على وجه الإجمال ـ قفى على ذلك ببيان أن لب الدين عند الله واحد ، وأن جميع الأنبياء قد اتفقوا عليه ولم يختلفوا فيه فى عصر من الأعصار وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وأنه هو القاهر فوق عباده المالك لجميع السموات والأرض لا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم ، وإن اختلفوا فى الرسوم والأشكال على حسب اختلاف الأزمان والأمكنة ، فعليكم أيها المسلمون أن تحافظوا على وحدة دينكم ، وألا تجعلوه عضين ، وكأنه يقول لهم : عليكم ألا تركنوا

إلى خوارق العادات كما رأيتم فى قصص موسى ، ولا تدعوا نظم الدولة بل سوسوها كما كان يفعل داود وسليمان ، ولا تذروا الصبر فى جميع الأعمال كما رأيتم فى قصص أيوب ومن بعده .

ثم نعى على المسلمين ما سيحدث منهم فى مستأنف الزمان حين يتفرقون شيعا يذوق بعضهم بأس بعض ويجعلون الدين قطعا فيما بينهم كما تتوزع الجماعة الشىء يقتسمونه فيصير لهذا نصيب ولذاك آخر .

وهذا إخبار بالغيب لما سيحصل فى هذه الأمة الاسلامية ، وقد حدث فعلا وافترقت الأمة سياسيا واجتماعيا بوساطة بعض رؤساء الدين ، فأعرض الله عن هؤلاء المختلفين وقطّعهم بين الأمم ، كما قطعوا أمرهم بينهم واقتسموه .

ثم بين أن الله يثيب عباده على صالح الأعمال اذا كانت القلوب عامرة بالايمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن كل عمل جلّ أو قل فهو مكتوب محفوظ لديه لايغيب عنه مثقال ذرة ، وأن جميع الخلق راجعون إليه فيثيب كل إنسان بما عمل من خير أو شر ، وأن الساعة قد اقترب ميقاتها ، ثم أخبر أن المشركين يدعون إذ ذاك على أنفسهم بالويل والثبور ويقولون يا حسرتنا على ما فرطنا فى جنب الله ، وكنا ظالمين لأنفسنا ، ولا ينفع الندم اذ ذاك .

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مرتع مبتغيه وخيم

الإيضاح

(إن هـذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون) أى إن الدين عند الله هو الانقياد له وحده لايقبل غيره ، وعليه اتفق جميع الأنبياء والشرائع ، وما اختلفوا الا فى الرسوم والصور على حسب اختلاف الأزمنة والأمكنة فعليكم أن تعبدوه وحده ولاتشركوا به شيئا من صنم أو وثن شجر أو حجر أو بشر أو ملك .

ثم نعى على المسلمين ما فعلوا من تفريق شأنهم فرقا وشيعا فقال :

(وتقطعوا أمرهم بينهم) أى وإنهم قد فرقوا أمرهم بينهم فرقا شتى كل فرقة تنعى على من سواها وتشيد بمناخرها ، وقد كان لهم فى عبر الماضين ما يمنعهم أن يقترفوا مثل هذا الجُرْم وكبير ذلك الإثم .

قال الحسن البصرى فى هذه الآية ـ يبين لهم ما يتقون وما يأتون ـ يريد أن هذا إخبار بالغيب بما سيكون منهم .

والخلاصة — إنهم قد غفلوا عما أمر به دينهم من وجوب الاعتصام بوحدة الأمة ونبذ الفرقة ، ففعلوا ضد هذا وذاق بعضهم بأس بعض ، وكان فى هذا وبال للجميع وتمكن عدوهم من أن يهيض جناحهم و يبطش بهم و يستعبدهم فى عُقر دارهم و يسيمهم الخسف والصغار بعد أن كانوا سادة أحرارا ، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ثم توعدهم على ما فعلوا فقال :

(كلّ إلينا راجعون) أى إنهم سيرجعون إلينا ونجازيهم على تفرقهم واختلافهم شيعا .

وفى هذا إخبار بالغيب بما سيحدث فى هذه الأمة التى ذاقت وبال أمرها وعاقبة اختلافها ، وكانت لقمة سائغة للآكلين ، ونهبا مقسما بين الطامعين ، جزاء ما اجترحت من التفرق شَذَرَ مَذَرَ « وَلاَ يَظْلِمُ رَبكَ أَحَدًا » .

و بعد أن أبان أن افتراق الأمة واقع لامحالة أردفه بفتح باب الرجاء فى لمّ شعثها واتفاقها بعد تفرقها ، عسى أن تقوم من كبوتها وترجع إلى وحدتها وتصير لها الدولة والصولة كما كانت فى سالف عهدها فقال :

(فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه و إنا له كاتبون) أى ومن يعمل صالح الأعمال وقلبه ملىء بالإيمان بربه والتصديق لأنبيائه ورسله ، واليقين بيوم الآخر يوم تجزى كل نفس بما عملت من خير أو شر ، فإنا لا نضيع سعيه ولا نبخسه حقه بل نوفيه على عمله الجزاء الأوفى ، وإنا مثبتون له ذلك فى صحيفة أعماله لا نترك منه شيئا جلّ أو قل ، عظم أو حقُر .

ونحو الآية قوله : « وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا » وقوله : « إِنَّا لَانُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً » .

(وحرام على قرية أهلكناها أنهم لايرجعون) أى ممتنع أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا .

(حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) أى ويستمر هذا الامتناع إلى قيام الساعة ، ومن أمارات ذلك فتح سد يأجوج ومأجوج وإتيان الناس سراعا من كل مرتفع من الأرض ، والمقصود الرد على المشركين فى إنكارهم للبعث والجزاء .

والخلاصة — إنه لاتزال حياة من مات وهلك ممتنعة ولا يمكن رجوعهم إليها حتى تقوم الساعة ويسرع الناس من كل حدب من الأرض .

(واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا) أى وقرب مجىء يوم القيامة وإذ ذاك تشخص أبصار الذين كفروا وترتفع أجفانهم فلا تكاد تطرف من هول ماهم فيه حين يقومون من قبورهم ويعلمون أن هـذا يوم الحساب الذى لم يُعدُّوا له العُدّة ، بل كانوا ينكرون مجيئه وحينئذ يقولون :

(يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين) أى يا هلاكنا احضر فهذا أوانك ، فقد كنا فى الدنيا فى غفلة من هذا الذى دهمنا من البعث والرجوع إلى الله للحساب والجزاء ـ لا بل الحق أننا لم نكن فى غفلة إذ نبهتنا الآيات والنذر ، وإنما كنا ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب .

وصفوة القول — إن الناس لايرجعون إلى الحياة حتى تزلزل الأرض زلزالها ويختل نظام هذا العالم فتموج الأمم بعضها فى بعض بتفريق أجزائها ، لافرق بين يأجوج ومأجوج وغيرهما ـ فذكرهما رمز لاختلال الأرض وخرابها ، فكأنه قيل إنهم لايرجعون إلى الحياة إلا إذا اختل نظام العالم ورجت الأرض رجا وماجت الأمم بعضها فى بعض وخرج الكفار من قبورهم شاخصة أبصارهم من الهول الذى هم

فيه ، وقد ذكرنا فى سورة الكهف من يأجوج ومأجوج ، وأين مساكنهم على وجه البسط ؟ فلا حاجة إلى إعادته هنا .

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هؤُلاَءِ آلِهَةً مَاوَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لاَيَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِيمَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ هٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) ..

شرح المفردات

الحصب : ما يرمى به فى النار لاشتعالها ، والزفير صوت نفس المغموم يخرج من أقصى الجوف ، والحسنى : أى الكلمة الحسنى التى تتضمن البشارة بثوابهم حين الجزاء على أعمالهم ، والحسيس : الصوت الذى يحس من حركتها ، والسجل : هو الصحيفة ،

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه هول الموقف ودعاء المشركين على أنفسهم بالهلاك فى هذا الحين وشخوص أبصارهم من الحيرة والدهش مما يشاهدون و يرون ـ أردف هذا بذكر مايئول إليه أمرهم بعد الحساب ، وأنهم يكونون هم ومعبوداتهم من الأصنام والأوثان

حطبا للنار حين يردونها ، وأنهم من شدة العذاب فيها يكون لهم أنين وزفير حتى لا يسمع بعضهم أصوات بعض لفظاعة ماهم فيه من العذاب .

أما من كتبت له السعادة والنجاة من النار فأولئك يكونون مبعدين عنها لا يسمعون صوت لهيبها ، ولا يخافون من أهوالها وآلامها ، بل يكونون فى نعيم دائم وتستقبلهم الملائكة مهنئين لهم قائلين : هذا يومكم الذى كنتم توعدون فى الدنيا .

ثم أعقب ذلك بذكر حال السماء حينئذ وأنها تطوى طيا وكأنها لم تكن كما يطوى الكاتب الطومار الذى يكتب فيه ، ويحوّل ذلك العالم المشاهد إلى عالم آخر فيخلق الله أرضا جديدة وكواكب جديدة ويعيد الناس للحساب ، وهو القادر على ذلك ، فكما قدر على خلقه أول مرة يعيده فى حال أخرى كما قال : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ » .

الإيضاح

(إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) أى إنكم أيها المشركون بالله العابدون من دونه الأوثان والأصنام ، وما تعبدون من دونه من الآلهة — وقود جهنم ، وإنكم واردوها وداخلون فيها .

ونحو الآية قوله : « فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » .

والحكمة فى أن الآلهة تقرن بهم وتدخل معهم فى النار :

(١) إنهم كلما رأوهم ازدادوا غما وحسرة ، لأنهم ما وقعوا فى العذاب إلا بسببهم وقد قالوا : النظر إلى وجه العدوّ باب من أبواب العذاب .

(٢) إنهم قد كانوا فى الدنيا يظنون أنهم يشفعون لهم فى الآخرة ويدفعون عنهم العذاب ، فإذا استبان لهم أن الأمر على عكس ما كانوا يظنون لم يكن شىء أبغض إليهم منهم .

(٣) إن إلقاءهم فى النار استهزاء بهم وبعبادتهم .

ثم بين لهم بالدليل خطأ ما يعتقدون فقال :

(لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها) أى لو كان هؤلاء الأصنام آلهة كما تزعمون أيها العابدون ـ ماوردوا النار ولا دخلوها ، لكنه قد اتضح لكم على أتمّ وجه أنهم وردوها ، إذ صاروا حطبها فامتنع كونهم آلهة .

وقصارى ذلك — إن الأصنام إذا كانت لاتنفع نفسها ولا تدفع الضر عنها ، فهى أبعد من أن تدفع الضر عن غيرها ، ومن جَرَاء ذلك فهى جديرة بالتحقير والإهانة لا بالتعظيم والعبادة .

(وكلّ فيها خالدون) أى وكل من الآلهة ومن عبدوها ماكثون فى النار أبدا لاخلاص لهم منها .

ثم بين أحوالهم فيها فقال :

(١) (لهم فيها زفير) أى لهم فى النار أنين ونفس متقطع من شدة ما ينالهم من العذاب .

(٢) (وهم فيها لايسمعون) أى وهم فى النار لايسمع بعضهم زفير بعض لعظم الهول وفظاعة العذاب .

و بعد أن ذكر حال أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله عطف عليه بيان أحوال السعداء من المؤمنين بالله ورسوله وقد أسلفوا صالح الأعمال فقال :

(إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) أى إن الذين سبق لهم التوفيق للطاعة ، وأخبتوا لله وأخلصوا له العمل ـ لايدخلون النار ولايقر بونها البتة .

ثم ذكر أوصافهم حينئذ فقال :

(١) (لايسمعون حسيسها) أى لايسمعون صوت النار الذى يحس من حركتها ، ولا يرون اضطرابها من شدة توهجها .

(٢) (وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون) أى إنهم فى حبور دائم ونعيم لاينقطع

(٣) (لا يحزنهم الفزع الأكبر) أى لايخيفهم هول النفخة الأخيرة فى الصور

حين قيامهم من قبورهم للحساب كما قال : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ » .

(٤) (وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون) أى وتستقبلهم الملائكة بالبشرى من النجاة من العذاب قائلين لهم : هذا هو اليوم الذى كنتم توعدون فى الدنيا بمجيئه وتبشرون بما لكم فيه من الثواب كفاء إيمانكم بالله وطاعتكم له ، وتزكية أنفسكم بصالح الأعمال باتباعكم أوامر ربكم واجتنابكم نواهيه .

وقصارى ذلك — إنهم خلصوا من كل ما يكرهون ، وفازوا بكل ما يحبون .

(يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب) أى هم لا يفزعون حين تطوى السماء وتزال وتأتى سماء أخرى جديدة وكواكب أخرى كما يطوى الطومار على ما يكتب فيه لحفظه من الضياع والمحو .

والخلاصة — إنه لا يلحقهم الفزع حين تمحى رسوم السماء وتذهب آثارها وتخلق أرض جديدة وكواكب جديدة .

(كما بدأنا أول خلق نعيده) أى وهكذا نخلقكم خلقا جديدا للحشر كى تحاسبوا ، فالناس ترجع للحياة على طراز غير طراز الدنيا ، وكذلك العوالم جميعها .

(وعدا علينا إنا كنا فاعلين) أى تلك الإعادة عدة منا كائنة لا محالة ، ولابد من تحققها ، لأنا قادرون عليها .

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) .

شرح المفردات

الزبور : الكتب التى أنزلت على الأنبياء ، والذكر : اللوح المحفوظ ، والبلاغ : الكفاية ، والعابد : من عمل بما يعلم من أحكام الشريعة وآدابها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أحوال كل من الكافرين والمؤمنين فى الآخرة - ذكر أن الدنيا ليست كالآخرة ، فلا يرثها إلا من كان قادرا على إصلاحها والانتفاع بخيراتها والاستفادة مما على ظاهرها وباطنها ، فمن كان أحصف رأيا وأحكم فكرا ملكها وتسلط عليها وجنى ثمارها واهتدى إلى ما أودع فيها من الخير .

ثم بين أن ما أوحى إلى الرسول من الشرائع وضروب الهداية كاف جد الكفاية لمن يعتبر بسنن الله فى الكون فيستفيد منها ما ينفعه فى دينه ودنياه ، فجميع ما جاء به الوحى من المواعظ وأحكام الشرائع هداية وذكرى لو تدبرها المتدبرون وتأملها المنصفون .

الإيضاح

(ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) أى ولقد كتب الله عنده وأثبت فى قديم علمه الأزلى الذى لا ينسى ، ثم أثبت فى الكتب السماوية من بعد ذلك أن الأرض لا يعمرها من عباده إلا من يصلح لعمارتها من أى دين كان وأىّ مذهب انتحل .

وصلاح الأمة يقوم على أربعة عَمَد :

(١) أن يكون قادتها علماء مفكرين ، وساستها حكماء عادلين ، بعيدين عن الجور والظلم والمحاباة ، يأخذون بيد المظلوم وينصفونه من الظالم ، ويعملون لخير الأمة وسعادتها ، ويواصلون ليلهم بنهارهم فى كل مايرفع من شأنها ، ويسمو بها على الأمم .

(٢) أن يكون لها جيش منظم يحمى حريمها ، ويدافع عنها إذا جد الجد ، وادلهمّ الخطب ، ولن يكون كذلك إلا إذا كان فيه المهندسون والمخترعون والقادة البارعون ، ولديه من السلاح وعُدد الحرب مايكشف عنه العلم من وسائل الدفاع من

طائرات وغواصات وسفن حربية وآلات للهدم والتدمير ، وجند حذقوا فنون الحرب و بلَوْا أساليبها المختلفة .

(٣) أن يقوم أبناء الحرف المختلفة من تجار وصناع وزراع بأداء أعمالهم على الوجه المرضى ، وكل طائفة منها تظاهر الطوائف الأخرى وتعاونها لخير الجميع وتقوم بما يجب نحوها من المساعدة فيما يكفل نجاح الأعمال .

(٤) أن تنظم هذه الطوائف أعمالها بحيث تتوزع هـذه المهن بين الأفراد على حسب حاجة الأمة إليها حتى لاتمد يدها إلى غيرها لمعونتها ، و يكون فى كل طائفة جماعة مبرزون يفكرون فيما يرقى شئون الطائفة بحيث تنافس أمثالها فى الأمم الأخرى أو تفوقها بما أوتيت من حسن التدبير والتصرف .

وهذا حكم أيدته التجارب فى سائر العصور لدى جميع الدول، فما من أمة تهاونت فى هذه الأمور أو فى شىء منها إلا حكم عليها بالفناء والزوال ، وتواريخ الفرس والروم والأمم الإسلامية والدولة التركية تدل على صدق ماتقول .

ونحو الآية قوله تعالى « إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ » .

(إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين) أى إن فيما ذكر فى هذه السورة من أنظمة الدول والتسلط على ألطف الأشياء كالهواء وعلى أصلبها كالحديد ، ومن الجمع بين حرب الأعداء والاستغراق فى ذكر الله وتسخير العمال فى المبانى العظيمة ، واستخراج مافى البحار من أصناف اللآلئ ، وما فى باطن الأرض من مختلف المعادن لـكفاية لقوم يجمعون بين العلم والعمل ، إذ يعلمون أن العلم شجرة ثمرتها العمل .

فعلى المسلمين قاطبة أن يصدعوا بما أمروا به فى هذا الـكتاب وأن يعرضوا عن الجاهلين بأمور دينهم فالله محاسبهم على أعمالهم كما يحاسبهم على قُدَرهم الجسمية ،

وليعلموا أنه متى ذاعت هذه الآراء فى الأمة قامت كلها قومة رجل واحد فى تنظيم شئونها وتربية أبنائها تربية تؤهلهم أن يكونوا قادة العالم الإنسانى .

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) أى وما أرسلناك بهذا وأمثاله من الشرائع والأحكام التى بها مناط السعادة فى الدارين ـ إلا رحمة الناس وهدايتهم فى شئون معاشهم ومعادهم .

بيان هذا أنه عليه السلام أرسل بما فيه المصلحة فى الدارين ، إلا أن الكافر فوّت على نفسه الانتفاع بذلك ، وأعرض عما هنالك ، لفساد استعداده وقبح طويته ولم يقبل هذه الرحمة ، ولم يشكر هذه النعمة ، فلم يسعد لافى دين ولا فى دنيا كما قال « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ » وقال فى صفة القرآن « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله بعثنى رحمة مهداة » .

قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ ، وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١١٢) .

شرح المفردات

مسلمون : أى منقادون خاضعون ، تولوا : أى أعرضوا ، آذنتكم : أى أعلمتكم وكثر استعماله فى الإنذار كما فى قوله : فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، ماتوعدون : من

غلبة المسلمين عليكم ، فتنة أى اختبار، واحكم: أى اقض ، و بالحق: أى العدل؛ والمراد بذلك تعجيل العذاب لهم ، ماتصفون : أى ماتقولون وتفترون من الكذب كقولكم « بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ » وقولكم إن للرحمن ولدا .

المعنى الجملى

بعد أن أورد سبحانه الحجج والبراهين لإقناع الكافرين بأن رسالة الرسول حق حتى لم يبق فى القوس منزع و بلغ الغاية التى ليس بعدها غاية ، و بين أن هذا الرسول رحمة للعالمين ، وهداية للناس أجمعين ، وأن من اتبعه سلك سبيل الرشاد ومن نأى عنه ضل وسار فى طريق الغواية والعناد ـ أردف ذلك بما يكون إعذارا و إنذارا فى مجاهدتهم والإقدام على مناوأتهم بعد أن أعيته الحيل وضاقت به السبل ولم تغنهم الآيات والنذر ، فتمادوا فى غوايتهم ، ولجوا فى عنادهم وأصبح من العسير إقناعهم وهدايتهم .

الإيضاح

(قل إنما يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد) أى قل لمشركى قومك ولمن بلغته الدعوة من غيرهم : ماأوحى إلىّ ربى إلا أنه لا إله إلا هو ، فلا تصلح العبادة لسواه، فانقادوا لأمره ، وأذعنوا لطاعته ، وابتعدوا عن عبادة الأوثان والأصنام، وتبرءوا منها حتى تسلكوا سبيل النجاة ، وتفوزوا بالسعادة .

(فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء) أى فإن أعرضوا عن اتباع ما أوحى إليك فقل لهم : هأنذا أعلمكم بأنى حرب لكم كما أنكم حرب لى ، فأنا برىء منكم كما أنكم برآء منى ، وأنتم سواء فى هذا الإعلام لا أخص أحدا منكم دون أحد .

ونحو الآية قوله « فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » .

(وإن أدرى أقريب أم بعيد ماتوعدون) أى إن ماتوعدون من غلب المسلمين عليكم واقع لامحالة ، ولكن لاعلم لى بقربه ولا ببعده ، لأن الله لم يطلعنى على ذلك.

(إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ماتكتمون) أى إن الله يعلم ماتجهرون به من الطعن فى الإسلام وتكذيب الآيات ، ويعلم ماتكتمون من الأضغان والعداوات للمسلمين ، فيجازيكم على قليل ذلك وجليله .

(وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين) أى وما أدرى سبب تأخير جزائكم ولعل ذلك زيادة فى افتتانكم وامتحانكم ،لينظر كيف تعملون ، وإنه ليؤخركم إلى حين كى تتمتعوا بلذات الدنيا مع إعراضكم عن الإيمان ، فيكون فى ذلك زيادة عذابكم لأن المعرض عن الإيمان مع توالى الآيات وتتابع البينات والنذر يكون عقابه أشد .

(قال رب احكم بالحق) أى قال الرسول : رب افصل بينى وبين من كذبنى من مشركى قومى ، وكفر بك وعبد غيرك ، بإحلال عذابك ونقمتك به بالعدل الذى يقتضى تعجيل العذاب به ، وتشديده عليه .

وخلاصة ذلك — رب عجل بعذابهم وقد أجاب الله دعوته وأنزل بهم العذاب الأليم يوم بدر .

قال قتادة : كان الأنبياء يقولون « رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ » فأمر رسولُ الله أن يقول ذلك .

(وربنا الرحمن المستعان على ماتصفون) أى والله المستعان على ماتصفون من الشرك والكفر والكذب والأباطيل كقولكم إن الله اتخذ ولدا وقولكم فى الرسول « بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ » .

وخلاصة ذلك — إن الله أمره أن يدعوه بأن يحكم بما يظهر الحق للجميع ، وأمره أن يتوعد الكفار بقوله :

(وربنا الرحمن المستعان على ماتصفون) أى وربنا الكثير الرحمة لعباده ، المستعان به فى كل الأمور التى من جملتها ماتصفون به من أن الشوكة تكون لكم ، ومن قولكم « مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » ومن قولكم « اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا » .

وقد كثر استعمال الوصف فى الكتاب الكريم بمعنى الكذب كقوله « وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ » وقوله « سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ » وصلى الله على محمد وآله .

خلاصة ما تتضمنه هذه السورة

(١) الإنذار بقرب الساعة مع غفلتهم عنها .

(٢) إنكار المشركين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه بشر مثلهم ، وأن ما جاء به أضغاث أحلام ، وأن محمدا قد افتراه ، ولو كان نبيا حقا لأتى بآية كآيات موسى وعيسى .

(٣) الرد على هذه الشبهة بأن الأنبياء جميعا كانوا بشرا ، وأهل العلم من اليهود والنصارى يعلمون ذلك حق العلم .

(٤) الإخبار بأن الله أهلك كثيرا من الأمم المكذبة لرسلها وأنشأ بعدهم أقواما آخرين .

(٥) بيان أن السموات والأرض لم تخلقا عبثا ، وأن الملائكة لا يستكبرون عن عبادته ولا يملون .

(٦) إقامة الدليل على وحدانية الله تعالى والنعى على من يتخذ آلهة من دونه بلا دليل على صدق ما يقولون مع أن الأنبياء جميعا أوحى إليهم أنه لا إله إلا هو .

(٧) النعى على من ادعى أن الملائكة بنات الله .

(٨) وصف النشأة الأولى ببيان أن السموات والأرض كانتا رتقا فانفصلتا ، وأن الجبال جعلت فى الأرض أوتادا حتى لا تميد بأهلها ، وأن كلا من الشمس والقمر يسبح فى فلكه .

(٩) استعجال الكافرين للعذاب ، مع أنهم لو علموا كنهه ما طلبوه .

(١٠) بيان أن الساعة تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون .

(١١) قصص بعض الأنبياء كموسى وهرون وإبرهيم ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذى الكفل ويونس وزكريا وقصص مريم .

(١٢) بيان أن الدين الحق عند الله هو الإسلام وبه جاءت جميع الشرائع ، والاختلاف بينها إنما هو فى الرسوم على حسب اختلاف الأزمنة والأمكنة .

(١٣) حادث يأجوج ومأجوج من أشراط الساعة واقتراب يوم القيامة .

(١٤) بيان أن الأصنام وعابديها يكونون يوم القيامة حطب جهنم ، وأنهم لو كانوا آلهة حقا ما دخلوها .

(١٥) وصف ما يلاقيه الكفار من الأهوال فى النار يوم القيامة .

(١٦) وصف النعيم الذى يتمتع به أهل الجنة إذ ذاك .

(١٧) بيان أن الأرض ستبدل غير الأرض ، وأن السماء تطوى طى السجل للكتاب .

(١٨) إن سنة الله فى الكون أن يرث الأرض من يصلح لعمارتها من أى دين كان وأىّ مذهب اعتنق .

(١٩) الوحى إنما جاء بالتوحيد وأن لا إله إلا إله واحد ، وأن الواجب الاستسلام له والانقياد لأمره .

(٢٠) ما ختمت به السورة من طلب الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحكم الله بينه وبين أعدائه المشركين ، وأنّ الله هو المستعان على مايصفونه به من أنه مفتر وأنه مجنون وأنه شاعر يتربصون به ريب المنون .